رسالة ابن فرسية الشعوبية والرسائل التي ردت عليها

دراسة مضمونية وأسلوبية

د. إبراهيم عوض

القاهرة

١٤٣١هـ - ٢٠١٠م

منذ أن وقَعْتُ على رسالة ابن غرسية فى تفضيل العجم على العرب وأنا مشغول بها : فهى نص أندلسى ، والشعوبية فى الأندلس كانت خافتة الصوت إلى حد كبير . والهجوم العنيف الذى فيها على العرب والذى لم يترك لهم شيئا يفتخرون به إلاَّ مزقه ولوّثه فى الوحل يقابله ثناء على النبى عليه السلام وصحابته وإعلان للتمسك بالإسلام ورفض للنصرانية . وفضلا عن ذلك ، فالرسالة ليست ردّا على شتم أو احتقار مباشر من العرب لابن غرسية ، كما هو الحال مثلا فى بعض قصائد بشار التى ذاد فيها عن نفسه وبنته سخف بعض الأعراب السفهاء الذين آذوهما دون سبب سوى العجرفة الكاذبة . ثم إن الرسالة فى أى من المراجع التى وقعتْ فى يدى ، (وهى « الذخيرة / ٣ / ٢ » لابن بسام ، و « نوادر المخطوطات » لعبدالسلام هارون ، « وملوك الطوائف » لمحمد عبدالله عنان ، و « تاريخ الأدب العربى / ٤ » للدكتور عمر فروخ ، و « تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف

والمرابطين » للدكتور إحسان عباس) لم ترد وحدها بل قُرنت بالردود التى حُبِّرت فى تفنيدها ، فكان أن وَجَدْتُ نفسى منذ اللحظة الأولى وسط نيران معركة أدبية ضروس . كذلك فإنى لا أكتم القارىء أن اسم « ابن غرسية » بعجمته وتفرده بين أسماء الأدباء العرب وما يبعثه فى خيالى من احتمال أن يكون صاحبه ابنا لأحد ملوك الإسبان الذين كانوا يتسمون باسم « غرسية » قد زاد فى هذا الانشغال والاهتمام . وقبل ذلك كلّه هناك الأسلوب الرائع الذى كتبت به الرسالة من شخص إسبانى الأصل يكره العرب أصحاب اللغة التى برع فى التأليف بها كل هذه البراعة .

ومن هنا فإنه ما إن أُسْنِد إلىَّ تدريس مادة « الأدب الأندلسى » فى الفصل الصيفى الذى عقب العام الدراسى ١٤١٢هـ فى تربية الطائف (جامعة أم القرى) حتى صحّ منى العزم على أن أفرغ لبحث هذه الرسالة العجيبة والردود عليها، فكانت هذه الدراسة التحليلية التى تناولتُ فيها ماتضمنته الرسالة من معان وأفكار مع تبيين رأيى فى كل

منها والإشارة إلى رد أصحاب الرسائل الأخرى عليها . كما درستُ فيها أسلوب ابن غرسية وكيف فرض نفسه على من ردوا عليه ، فضلا عن بعض القضايا المتعلقة بالموضوع ، مثل دعوى شعوبية ابن سيدة ، والقول بأن مجاهداً العامرى (أحد ملوك الطوائف وصاحب الجُزُر ودانية ، الذى كان يكتب له ابن غرسية) كان يؤوى الشعوبيين ويرعاهم ، مع دراسة السمات التى وجدتُها تنتظم الردود التى وُضعت فى نقض رسالة ابن غرسية من جنوحها إلى العرى فى الألفاظ واتهامه فى دينه ، وغير ذلك .

والله أسال أن يجعل لهذا البحث شيئا من نفع . وله الحمد ، فهو صاحب المنة .

نفثة حسرة

ابتدأتُ كتابة هذا البحث عصر يوم الاثنين ١٢ صفر ١٤١٣هـ (١٠ أغسطس ١٩٩٢م). وقد شاهدت فى تلك الأيام على شاشة المرناء السعودى آخر فقرة فى حفل اختتام الدورة الأوليمبية التى أقيمت فى برشلونة بإسبانيا . ومن بين ماشاهدتُه العلم الإسبانى ذو الصليب ، والراقصون الإسبان ذوو القرون والأقنعة الغريبة والذين ربما كانوا يمثلون بعض الآلهة الوثنية أو الحيوانات المتوحشة الخرافية فى الأساطير الأوربية . وقد ملأتنى الحسرة على أن إسبانيا قد ضاعت من يد الإسلام وارتدّت نصرانية كما كانت ، مع أن الأغلبية الساحقة من مسلميها قبل أن تصير إلى ذلك المصير كانوا إسبانا وبرتغاليين أصلاء ، مثلما أن الأغلبية الساحقة من المسلمين فى أى بلد فتحه العرب كانوا من أهل البلاد . وضاعف حسرتى هذا الخزى الذى باء به العرب المشتركون فى هذه الدورة، إذ لم يحصلوا كلهم أجمعون إلا على ذهبية واحدة وفضية يتيمة (للمغرب) ، ثم برونزية لاثانى لها (لقطر)، على حسب ماقرأت صباح اليوم.

فى الصحف ، على حين حصلت إسبانية على نصيب طيب من الميداليات .. إسبانية الأوربية النصرانية ! وشرد خيالى وأنا حزين وتساءلت : تُرَى لو أن العرب قد جَرَوْا على سُنّة إشراك أهل تلك البلاد فى الحكم حتى لو أدى ذلك إلى أن يكون منهم الخلفاء والسلاطين والأمراء ، ألم يكن هذا التصرف من شأنه أن يحتفظ للإسلام بهذه البلاد ؟ ذلك أن أهلها أنفسهم كانوا سيستميتون فى الدفاع عنها ساعتئذ ضدّ مواطنيهم الذين بقوا نصارى وكانت أوربا من ورائهم تحرضهم وتساعدهم ، ويستقتلون فى الحفاظ عليها مسلمةً توحد اللّه العلى القدير وتؤمن بمحمد صلى الله عليه وسلم . ولكن هانحن أولاء قد حصدنا ومازلنا نحصد الثمار المرة لنظرة العرب إلى من كانوا يسمونهم الموالى ، على حين هم إخوانهم فى الدين . لقد نسى العرب قول الله سبحانه وتعالى : « يا أيها الناس ، إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا . إن أكرمكم عند الله أتقاكم » ، وتجاهلوا المبدأ النبيل الذى أرساه الرسول الأكرم صلوات الله وسلامه عليه من أنه لافضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح .

هذه نفثة ليست منبتة الصلة بموضوع هذا البحث ، فقد كان ابن غرسية من هؤلاء الموالى ، وإلى العرب سدّد سهمه .

ابن غرسية

إن المعلومات التى وصلتنا عن ابن غرسية كاتب هذه الرسالة هى من النزورة بمكان ، إذ لسنا نعرف عنه إلا أن اسمه أحمد بن غرسية ، وكنيته أبو عامر وأبو مريم ، وأنه كان من أبناء النصارى البشكنس ، وأنه سُبى صغيرا ، ورعاه وأدّبه مولاه مجاهد العامرى ملك الجُزُر ودانية (٤٠٠ - ٤٣٦ هـ) ، الذى كان بدوره مولى للمنصور بن أبى عامر (ومن هنا تلقيبه بالعامرى) ، ثم أصبح فيما بعد ملكا من ملوك الطوائف ، وحاول فتح سردينية وكاد أن ينجح لولا اختلاف القواد وتآزر بعض ملوك أوربا عليه مما أفشل غزوته وجعله يعود أدراجه ناجياً بحياته بعد أن وقعت أسرته فى الأسر . وكان مجاهد هذا من علماء القراءات وأديبا نقّادة . أما ابن غرسية فكان كاتبا عنده . وقد حاول أن يستميل إلى بلاط سيّده الشاعرَ المسمَّى بابن الحدّاد (أو ابن الجزّار أو ابن الخراز ، على اختلاف فى ذلك)، فأرسل اليه هذه الرسالة التى يذم فيها العرب (الذين آثرهم ابن الجزار ، ممثَّلين فى المعتصم بن صمادح ملك المرية ، على سيده

غير العربى) ويفضل عليهم الأعاجم (١). كذلك مما نعرفه عن ابن غرسية أنه كان له ولد اسمه أبوجعفر أحمد اتخذ له أبا العباس الجريرى مؤدبا (٢) .

وقد وصلتنا رسالة ابن غرسية ، التى نحن بصددها . أمّا الردود التى ألفت فى تفنيدها وهجو صاحبها فلم يصلنا إلا بعضها (٣) . وسوف ندرس هذه الردود مع رسالة ابن غرسية ، لأنها متممة لها .

وقد أورد ابن بسام فى « الذخيرة » عدداً من هذه الردود مع رسالة ابن غرسية ، كما أورد البلوى فى « ألف باء » ردّه هو . وكذلك حقق الأستاذ عبدالسلام هارون فى الجزء الثالث من « نوادر المخطوطات » رسالة ابن غرسية وعدداً من الردود عليها أيضا اثنان منها فى الذخيرة ، وقدّم لذلك كله بمقدمة تاريخية تحليلية قيمة أثار فيها عددا من المسائل التى يستلزم بعضها شيئا من المناقشة لتجليتها .

مسائل تحتاج إلى تجلية

ومن هذه المسائل الاتهامُ الذى وجهه أحد القدماء إلى ابن سيدة بالشعوبية . وقد أشار الأستاذ عبدالسلام هارون إلى ذلك إشارة المؤمن به ، موردا ماجاء فى « سير أعلام النّبلاء » من أنه « كان شعوبيا يفضل العجم على العرب » (٤) . وبالرجوع إلى هذا الكتاب وجدت فيه فعلاً هذه العبارة ، ولكن مسبوقة بقوله « قال اليسع بن حزم : ... » (٥) ، أى أن صاحب « السِّيَر » قد أورد هذه الدعوى مسندة إلى من ادّعاها ، ولم يوردها (كما يفهم من طريقة استشهاد الأستاذ هارون لها) إيراد من يتبنى الحكم الذى فيها ويؤمن به ويثق بصحته . كذلك فقد وجدت فى الهامش إحالة من المحققين على « لسان الميزان » لابن حجر العسقلانى (مجلد ٤ / ص ٢٠٦) . وقد تحققت من ذلك بأن رجعت إلى « لسان الميزان » (ط. حيدر أباد الدكن / ١٣٣٠ هـ / نفس المجلد والصفحة المشار إليهما فى « سير أعلام النبلاء ») فوجدت فيه هذه العبارة : « وذكر اليسع بن حزم أنه كان يرى رأى

الشعوبية فيفضل العجم على العرب » . كما وجدتُ ترجمة اليسع هذا فى نفس هذا الكتاب (٦ / ٢٩٩ - ٣٠٠) ، وفيها أنه توفى فى سنة خمس وسبعين وخمسمائة (٦) ، كما قيل عنه إنه « قد تُكُلِّم فى نقله ، ويظهر على عبارته مجازفة » .

وقد حاولتُ أن أجد شيئا عن شعوبية ابن سيدة المدّعاة هذه فى المصادر والمراجع المتاحة لى ، وأهمها « الصلة » لابن بشكوال ، و « المطمح » للفتح بن خاقان ، و « المغرب » لابن سعيد ، و « بغية الملتمس » للضبّى ، و « نفح الطيب » للمقرى ، و « معجم الأدباء » لياقوت الحموى ، و « وفيات الأعيان » لابن خلكان ، و « أنباه الرواة » ، و « نكت الهميان » للصفدى ، و « بغية الوعاة » للسيوطى ، و « البُلْغة فى تاريخ أئمة اللغة » للفيروزابادى ، و « تاريخ الفكر الأندلسى » لبالنثيا ، و « الأعلام » للزركلى، و « ظهر الإسلام / حـ ٣ » للدكتور أحمد أمين ، والمقدمة التى كتبها الأستاذ مصطفى السقا ود. حسين نصار لـ « محكم » ابن سيدة ، ومقدمة محمد حسن

آل ياسين لكتاب ابن سيدة « شرح مشكل أبيات المتنبى » و « الحركة اللغوية فى الأندلس منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف » لألبير حبيب مطلق ، و « ابن سيدة - آثاره وجهوده فى اللغة » للدكتور عبدالكريم شديد النعيمى ، فلم أر أية إشارة إلى ذلك .

وبالعكس نجد ابن سيدة فى مقدمة معجمه « المحكم » يشيد بلغة العرب إشادة كبيرة ويصفها بـ « الشريفة الكريمة اللطيفة » و « المكرمة الرفيعة المحكمة البديعة ذات المعانى الحكيمة المرهفة والألفاظ اللدنة القويمة المتفقة مع كون بعضها مادة كتاب الله تعالى الذى هو سيد الكلام لايأتيه الباطل من بين يديه ولامن خلفه » ... إلخ (٧) ، بل إنه جعلها متفوقة فى الحسن على سائر اللغات فى العالم (٨) . كما وصف العرب الذين أخذ عنهم اللغةَ علماءُ اللغة بـ « الفصحاء » و « الصرحاء » ، وسمى القوم الذين يعيش بينهم بـ « العجم » ، وجعل ذلك عذرا لنفسه ، إذ كان عليه أن يؤلف فى اللغة وهو بين ظهرانى أولئك القوم (٩) . ومثل هذا

الكلام لايمكن تصور صدوره من شعوبى .

ومما تقدم يمكننا أن نخلص إلى الآتى :

١- أن الوحيد (فى حدود علمى) الذى أشار إلى شعوبية ابن سيدة هو اليسع بن عيسى بن حزم المذكور ، وبين وفاتـــه ووفاة ابن سيدة نحو قرن وثلث (حسب اختلاف الروايات فى تاريخ وفاة الثانى) .

٢- ترى لو كان ابن سيدة شعوبيا حقا ، ألم يكن الأحرى أن يذكر ذلك أو يشير إليه مجرد إشارة أحدٌ من ترجموا له قبل اليسع هذا ؟

٣- كذلك لو كانت هذه التهمة صحيحة ، أكان جمهور الذين ترجموا لابن سيدة (إذا استثنينا صاحبـى « لسـان الميـزان » و « سِيَر أعلام النبلاء ») يسكتون عن هذه التهمة فلا يتعرضون لها ؟

٤- وحتى « السير » و « اللسان » لم يوردا كلام اليسع بن حزم إيراد المتبنى له ، بل يكتفيان بذكر عبارته منسوبة إليه دون أدنى تعليق .

٥- ثم ، وهذا مهم جدا ، ينبغى ألا نُهمل ماجاء فى حق اليسع بن حزم هذا فى « لسان الميزان » ، كما سبق القول ، من أنَّ فى عبارته مجازفة وأنه قد تُكُلِّم فى نقله (١٠) .

لهذا فإنى أضرب صفحا عن هذه التهمة وأعدّها مجرد دعوى بلا دليل من شخص يفصل بينه وبين ابن سيدة مابين قرن وثلث وقرن ونصف . ومالم نعثر على دليل قاطع على هذه الشعوبية أو شىء ترجيحى فى هذا الصدد فليس أمامنا إلاّ إهمال ذلك الزعم وعدم الالتفات إليه .

كذلك فإن أبا الأصبغ بن أرقم ، وكان مع ابن سيدة فى بلاط إقبال الدولة على بن مجاهد العامرى ، قد أنشأ رسالة فى تفنيد الانتقادات التى وجهها إليه ذلك العالم اللغوى لاستعمالات لغوية وأسلوبية استخدمها فى بعض كتاباته ، وكان تفنيده لانتقادات ابن سيدة فى منتهى العنف . وكذلك انتقده فى خطبة خطبها . ومع ذلك فلم يذكر فى هذا ولا فى ذاك أنّه شعوبىّ (١١) .

أما تجويز عبدالسلام هارون أن يكون مجاهد العامرى صاحب دانية مأوى وملاذا للشعوبيين (١٢) فهو مجرد احتمال لادليل عنده عليه إلا أن ابن غرسية ، صاحب الرسالة التى تهاجم العرب وتفضل عليهم فى جاهليتهم غيرهم من الأمم ، كان أحد كتبته ، وأن ابن سيدة كان من العلماء الذين لاذوا بكنفه . فإذا وضعنا فى حُسباننا ما انتهينا إليه فى أمر ابن سيدة وعرفنا إلى جانب ذلك أن أحداً ممن رجعنا إليهم من الذين ترجموا لمجاهد من القدماء والمحدثين لم يذكر عنه شيئا من هذا تبين لنا أن ماقاله الأستاذ هارون غير مقنع .

وهناك رسالة علمية عن « مجاهد العامرى » هذا حصلت بها الدكتورة كليليا سارنللى تشركوا على درجة الماجستير فى التاريخ من مصر ، ودرسته فيها من جميع الوجوه : حاكما ، وقائدا عسكريا ، وعالماً ، وحاميا للعلم والأدب ، ورب أسرة ... إلخ . ولم ترد فى كتابها كلمةٌ واحدة تتصل من قرب أو بعد بما بدا لعبدالسلام هارون رحمه اللّه بخصوص إيوائه المفترض للشعوبيين . بل إنه من بين الثلاثين أديباً وعالماً

والنيّف الذين اتصلوا به أو بمملكته لم أجد أحداً يمكن أن يُشْتَمَّ من سيرته أو أخلاقه وشخصيته أنه شعوبى ، وإن لم تذكر الباحثة للأسف أى شىء عن ابن غرسية ، ولا أدرى لماذا ، مع أنها قد رجعت (ضمن مارجعت إليه واقتبست منه من كتب) إلى كتاب « الذخيرة » لابن بسَّام ، الذى خصّص صفحات طوالاً لرسالة ابن غرسية وبعض الردود عليها (١٣) .

قد يقول قائل : وهل يمكن أن يكون ابن غرسية قد كتب رسالته دون علم من مجاهد مولاه ؟ فلماذا إذن لم يستنكر مجاهد ماكتبه ربيب نعمته ، اللهم إلا إذا كان فعلا شعوبيا ؟

والواقع أن من الممكن أن يكون ابن غرسية قد كتب رسالته وبعثها دون أن يطلع مجاهداً على تفاصيلها . إنه لامانع من ذلك (١٤) . وفى هذه الحالة يكون ماقاله فى حق العرب فيها تعبيرا عن موقفه ومشاعره وآرائه هو وحده . وحتى لو ثبت فعلا أن مجاهداً العامرى كان يعرف الرسالة تفصيلاً ، فهل ممّا ينكَر على إنسان أن يرتاح لمن يمدحه ويدفع عنه هو وجنسه كله نظرة الاستخفاف والاحتقار ؟

ويجب أيضا ألا ننسى أن مجاهداً قد زوّج عدداً من بناته لبعض ملوك الطوائف العرب المعاصرين له . أفلو كانت هذه الرسالة قد كُتبت بعلمه ومباركته قبل ذلك أكان من السهل على هؤلاء الملوك العرب أن يُقبلوا على مصاهرته بل أن يفكروا فى ذلك مجرد تفكير ؟ أو كانت هذه الزواجات قد تمّت قبل تأليف الرسالة أكانت نفسه تطيب بالإيعاز إلى ابن غرسية بشتم العرب وتحقيرهم أو الرضا بذلك وأصهاره عرب من هؤلاء العرب ؟ وأى عرب ؟ عرب ملوك ، وليسوا عربا عاديين من عُرْض الطريق ! إنهم المعتضد (أو ابنه المعتمد) بن عباد ، والمعتصم (١٥) بن صمادح ، صاحب المرية ، الذى كان يلوذ به ويمدحه ابن الحدّاد الذى أرسلت إليه رسالة ابن غرسية ، وعبدالملك بن عبد العزيز بن أبى عامر (١٦) .

وبالمناسبة ، فسوف نعرف بعد قليل أن أحد الصقالبة الذين نبغوا فى الكتابة والأدب فى عهد المنصور بن أبى عامر وبتشجيع منه قد ألف كتاباً يفاخر فيه بذكر فضائل الصقالبة ويردّ على من أنكروا مزاياهم . والمنصور بن أبى عامر عربى

أصيل . فهذا أحد كتابه من الصقالبة يؤلف رسالة ينتقض فيها لكرامة بنى أرومته ويجاهر بالمفاخرة بمحاسنهم مخطّئا من يقللون من شأنهم ، وهم بطبيعة الحال العرب . وكما أنّ تأليف هذه الرسالة من قِبَل أحد كتاب المنصور لايمكن أن يُتَّخَذ دليلا على شعوبية ذلك الزعيم العربى ، فمن السهل أن يُنْظَر بنفس العين إلى رسالة ابن غرسية وعدم كونها بالضرورة برهانا على شعوبية مجاهد العامرى مولاه ، الذى أحسب أن مشاعره الإسلامية الراسخة (تلك المشاعر التى يكفى فى تمثيلها أنه قد حاول أن يمدّ سلطان الإسلام إلى سردانية الإيطالية النصرانية وماحولها رغم معارضة زوجته النصرانية فى ذلك ، وعبأ لذلك الغرض أسطولا كبيرا وغزا تلك البلاد ، ولكنه لم يوفق فى الاحتفاظ بها بعد أن فتحها ومكث بها شهورا ، بل إن أسرته قد سُبِيت فى تلك الغزوة ، وقد استطاع ان يسترجعها إلا أمَّه وابنه : فأما أمُّه فكانت نصرانية ولم تشأ أن تعود إليه فلم يبال بذلك ، وأما ابنه فقد افتداه بعد زمن طويل ، ولما عاد إليه عرض عليه الإسلام وكان قد تربى على أيدى آسريه من

النصارى ، فقبله وربّاه على عقيدته (١٧)) تمنعه أن يشجع كلاماً كالذى قاله ابـن غرسية فى حقّ جدتنا هاجر ممَّا سوف نعرفه لاحقا .

وعلى عكس ما اتُّهِم به مجاهد فى هذا الصدد نجد أحد كبار المتخصصين فى التاريخ الأندلسى ، وهو محمد عبدالله عنان ، يقول إن شخصيته كانت تتمع بعروبة قوية (١٨) .

وثمة مسألة أخرى محيرة ، وهى أننا لانعرف اسم « أبى يحيى بن مسعـدة » أحـد أصحـاب الردود على رسالة ابن غرسيـة . وقـد حاولـت مـرارا ، ولكـن عبثـا ، أن أتوصـل (بالاعتماد على كنيته أو على بنوّته) إلى أى ترجمة له فى أى من الكتب التى ظننت أنه يمكن العثـور على ترجمـة له فيها فلم أخرج بطائل . ولو كان قد وصلنا اسمه لسهل علينا الأمر كثيرا . لكن لو كان هذا هو سبب الحيرة لهان الأمر ، إذ قد ورد فى مختتم ردّه على ابن غرسية دعاء لأبى عبدالله بن محمد بن عبدالله القرشى العلوى الفاطمـى المحمدى ، وهو محمد بن تومرت (كما ذكر الأستاذ هارون) وكذلك لعبد

المؤمن بن علىّ (١٩) . وقد قام الأول بالأمر فى سنة ٥١٥ هـ وتوفى ٥٣٤ هـ ، والثانى عاش مابين ٤٨٧ و ٥٥٨ هـ (٢٠) . أى أن الرّد قد كُتب بعد زمن طويل جدا من موت مجاهد العامرى (الذى خُبِّرت رسالة ابن غرسية فى عهده) ، إذ كانت وفاة مجاهد هذا فى ٤٣٦ هـ ، على حين أن الرسالة لابد أن تكون قد كتبت مابين وفاة ابن تومرت ووفاة خليفته ، أى بعد وفاة مجاهد بأكثر من قرن ، مما يُسْتَبْعَد معه أن يكون ابن غرسية حيا فى وقت تأليف الرّد، إذ تكون سنه آنذاك فوق المائة والأربعين عاماً على الأقل . وقد يبدو أنه لامشكلة فى هذا ، فليس مايمنع ، بل ما أكثر ، أن يكتب كاتب شيئا ثم يرّد عليه آخر بعد زمان طويل قد يصل إلى قرون . ومن الواضح أن الأستاذ هارون لم يجد فى الأمر فعلاً مايثير الانتباه (٢١) . لكن يلاحظ أن الخطاب فى الرسالة موجّه إلى ابن غرسية كما لو كان لايزال حيّا . نفهم ذلك من قول أبى يحيى هذا فى أول ردّه « إياك أعنى أبا عامر » (٢٢) ، ومناداته له أكثر من مرة ، مع

اتهامه فى موضع على الأقل بالأبنة (٢٣) ، وقوله له مامعناه أن الأَوْلى به ، مادام يكره العرب إلى هذا الحد ، أن يستعمل بدلاً من لغتهم رطانة قومه هو الأعجمية (٢٤) . ليس هذا فحسب ، بل إنه قد أورد أبياتا يحض فيها على الثأر منه ، والثأر لايمكن أن يؤخذ إلاَّ ممن لايزال فى قيد الحياة (٢٥) . بل إنه فى مكان آخر فى ردّه عليه يدعوه إلى استدراك مابدر منه والرجوع عما قاله (٢٦) ، وهذا لايُتَصَوَّر إلا إذا كان ابن غرسيه حيّا آنذاك . فهل امتدّ العمر بابن غرسية إلى ذلك الحدّ ؟ وإذا كان فأين كان يعيش ؟ وأين أخباره حينئذ ؟ وهل يتناسب هذا العمر الطويل مع المعطيات النزرة عنه ؟ إن د. عمر فروخ يحدد وفاته بأنها بُعَيْد سنة ٤٧٧ هـ (٢٧) . أم يكون أبو يحيى بن مسعدة قد وهم وظن أنه كان لايزال حيا ؟ ولكن هل يمكن ذلك ؟ أم يكون أبو يحيى هذا قد كتب رده قبل ذلك حين كان ابن غرسية لايزال حيا ثم أضاف الخاتمة فيما بعد ؟ أم إنه لم يعش فى عصر خليفة ابن تومرت كما يُفْهَم من خاتمة ردّه ، وإنما

عاش قبل ذلك فى فترة كان فيها معاصراً لابن غرسية ، وتكون خاتمة الرّد المنسوب إليه قد أضافها مثلا من نسخها فى عصر عبد المؤمن بن على دون أن ينصّ على هذا فوصلتنا كأنها جزء لايتجزّأ من الرّد ؟

وثمة ملاحظتان أخريان قد يمكن أن نجد فيهما تعضيداً لهذا الافتراض الأخير إن صحَّ : الأولى أننى لم أجد فى أى من الردود الأخرى التى أوردها الأستاذ هارون (فى الجزء الثالث من « نوادر المخطوطات ») وابن بسام (فى « الذخيرة » القسم الثالث) ولا فى ردّ البلوى (فى كتابه « ألف باء ») مثل هذه الخاتمة الدعائية للسلطان . والثانية أن السجع أثناء ذلك الدعاء قد طال على فاصلة واحدة (وهى ياء النسب) ، إذ تكررت هذه الفاصلة ثمانى عشرة مرة (٢٨) ، وهو ما لم يحدث على طول الرسالة ، فإن أقصى ماكانت فاصلة السجع تتكرره هو ست مرات .

وبعد ، فإن الأسلوب الذى كتب به رد أبى يحيى بن مسعدة (وبعض الردود الأخرى أيضا) دليل على أنها كتبت

فى حياة ابن غرسية . وعلى ذلك فليس مقنعا تجويز البلوى فى « ألف باء » (٢٩) أن يكون ابن غرسية قد أخفى رسالته فى حياته ولم يُطْلع أحداً عليها إلا صفوة خلاَّنه ثم لما مات ظهرت وانتشرت ، وبخاصة أنها موجَّهة إلى ابن الحداد ، الذى من الواضح أنه كان شديد النفور من الورود على مجاهد العامرىّ . ولايعقل أن يكون ابن الحداد قد كتمها وسترها على ابن غرسية ، الذى هاجمه فيها وبكّته وهدّده ، كما سيأتى بيانه لاحقا .

وهناك قضية متعلقة بالرسالة الثانية فى الرد على ابن غرسية من مجموعة الردود التى حواها المجلد الثالث من « نوادر المخطوطات » للأستاذ عبدالسلام هارون ، فقد رجّح بل كاد يقطع أن تكون ردا آخر لأبى يحيى مسعدة هذا لمايراه من تشابه شديد بين الأسلوبين والتقارب بين بعض العبارات (وقد مثل لها) (٣٠) .

والحقّ أن ذلك يبدو أمراً مستبعداً ، إذ لماذا يكتب أبو يحيى ردين على نفس الرسالة ، وبخاصة أن إحداهما لايمكن أن

تكون بسطاً للأخرى ، إذ هما مختلفتـان فـى الأفكار وطريقة الرد اختلافا غيـر قليل . أما التشابه الأسلوبى بين الرسالتين فهو ليس أمراً خاصا بهما ، بل هو موجود بين معظم الرّدود على ابن غرسية ، بل وبينها وبين رسالة ابن غرسية نفسها كما سأبين فى آخر هذا البحث . علاوة على أن فى رسالة أبى يحيى بن مسعدة عُرْياً كثيراً واتهامـا متكـررا لابن غرسية وقومه بالأبنة ، على حين يخلو الرد الثانى المجهولُ المؤلِّفِ من ذلك . وعلى هذا فإننى أرى أن السؤال عن صاحب هذا الرد لايزال قائماً . وكل ما نستطيع قوله فى هذا المضمار هو أن الكاتب لابد أن يكون معاصراً . ذلك أنّه يتوجّه بالخطاب طوال رسالته إلى ابن غرسية توجّه من يخاطب شخصاً لايزال حيّا .

ومن تلك المسائل التى تحتاج أيضا إلى تجلية أن الأستاذ هارون ، فى عرضه لما قاله جولدتسيهر عن الشعوبية فى الأندلس والدواعى التى أثارتها ، قد ذكر أن تعالى العـرب فـى تلـك البلاد على الصقالبـة قـد « دعـا بعضهـم أن ألف كتابا سماه « كتاب الاستظهار والمغالبة على أن من أنكر فضل الصقالبة »

أشاد فيه بذكر مشاهير الصقالبة فى شتى فروع الثقافة العربية » (٣١) ، وذلك دون أن يسمى (هو أم جولدتسهير ؟) هذا المؤلف ، ولا أدرى أكان ذلك لأن هذا المؤلف لم يكن معروفا أم لأن الأستاذ هارون (أم جولدتسيهر؟) لم يهتم بذكر اسمه واكتفى بالإشارة إلى كتابه ؟

أيا ما يكن الأمر فإننا مازلنا نجد فى الطبعة السادسة من كتاب د. إحسان عباس « تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين » الصادرة فى سنة ١٩٨١ م (أى بعد مايقرب من ثلاثين عاماً من صدور الطبعة الأولى من كتاب الأستاذ عبدالسلام هارون) أنه قد « ألف بعضهم كتابا سماه « الاستظهار والمغالبة على من أنكر فضل الصقالبة » ... » (٣٢) ، بنفس صيغة التجهيل التى فى كلام الأستاذ هارون ، مما لابدَّ معه أن نذكر اسم ذلك المؤلف ، وهو حبيب الصقلبى ، أحد الذين نبغوا فى الكتابة والأدب فى عهد المنصور بن أبى عامر وبتشجيع منه (٣٣) .

لقد وردت هذه المعلومة فى « ذخيرة » ابن بسام ، التى

حققها د. إحسان عباس بعد أن ألف كتابه ذاك . وربما لم تقابله هذه المعلومة آنئذ ، وإلاَّ لساقها ، ثم لمَّا حقق « الذخيرة » بعد ذلك فاته (أو ربما لم يهتم) أن يضيفها فى الطبعات اللاحقة ، وبقى كتاب حبيب الصقلبى عنده هو أيضا غفلا من اسم صاحبه إلى الطبعة السادسة على الأقل من كتابه ، وهى الطبعة التى أشتغل عليها . على أن هذه المعلومة عينها قد وردت أيضا فى كتاب المستشرق الإسبانى آنخل جثالث بالنثيا الذى ترجمه د. حسين مؤنس بعنوان « تاريخ الفكر الأندلسى » (٣٤) ، وكان من المراجع التى اعتمد عليها د. إحسان فى تأليفه كتابه المذكور، فكيف لم يتنبه إليها؟

إننى لا أنتقد ، فما أكثر مايحدث لكل منا هذا وأشدّ منه ! ولكننى أسجل ملاحظة فقط ، راجيا أن يكون فيها عبرة ، لى قبل غيرى .

الهوامش

١- ومعنى ذلك أنها كُتِبت فى حياة مجاهد هذا (توفى عام ٤٣٦ هـ) . بيد أن محمد عبدالله عنان فى كتابه « دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى » (ط ٢ / الخانجى / ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م / ص ٢٠٤) يرجح أنها كتبت أثناء حكم على (ابن مجاهد هذا) مابين ٤٥٠ و ٤٦٠ هـ .

٢- انظر ابن سعيد / المغرب فى حلى المغرب / تحقيق د. شوقى ضيف / القاهرة / ١٩٥٣ - ١٩٥٥ م /٢ / ٤٠٦ ، وابن الأبار / المعجم / ط . مجريط / ١٨٨٥ م / ٢٩٩ ، وعبدالسلام هارون / نوادر المخطوطات/ ط ٢ / مصطفى البابى الحلبى / القاهرة / ٣ / ٢٣١ - ٢٣٣ ، ٢٦٤ ، وكذلك الهامش رقم ١ / ص ٢٢٩ / مجلد ٣ من « الإحاطة فى أخبار غرناطة » للسان الدين بن الخطيب / تحقيق محمد عبدالله عنان / ط . الخانجى / القاهرة / ط ١/ ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م ، ومحمد عبدالله عنان / دول الطوائف / ٢٠٤ ، والهامش رقم ٣ / ص ٧٠٤ / مجلد ٢ / قسم ٣ من « الذخيرة » / تحقيق د. إحسان عباس / ط٢ / دار الثقافة / بيروت / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م ، ود. عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / دار الملايين / بيروت / ١٩٨١ م / ٤/ ٦٨٣ .

٣- انظر « نوادر المخطوطات » / ٣ / ٢٣٦ - ٢٤٠ ، ومحمد عبدالله عنان / دول الطوائف / ٤٥٥ - ٤٥٩ ، ود. إحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين / ١٧٢ .

٤- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٣٢ .

٥- سير أعلام النبلاء / تحقيق الأرناؤوط والعرقسوسى / ط٢ / مؤسسة الرسالة /

بيروت / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م / مجلد ١٨ / ص ١٤٥ .

٦- جاء فى « المعجم » لابن الأبار أنه توفى فى ٥٩٥ هـ ، وليس فى ٥٧٥ .

٧- انظر مقدمة « المحكم » / دار الآفاق الجديدة / بيروت / ١ / ٦ ، ٧ .

٨- السابق / ١ / ٣ .

٩- السابق / ١ / ١٤ .

١٠- قرأت النص التالى لليسع بن حزم فى كلامه عن مدينة شنترة الأندلسية وخواصها : « إن من خواصّها أن القمح والشعير يُزْرعان فيها ويُحْصَدان عند مضىّ أربعين يوماً ، وأن التفاح فيها دور كل واحدة ثلاثة أشبار وأكثر » ، ثم ذكر أن أحد من يثق بهم قد حكى له أنه رأى عند المعتمد بن عباد عددا من التفاح الشنترى محيط الواحدة منها خمسة أشبار (المقرى / نفح الطيب / ١ / ١٦٤) . وهو كما ترى كلام غريب مستبعد أشد الاستبعاد ، إذ ما الذى يميز شنترة عن سائر المدن الأندلسية بحيث تكون لها تلك الخواصّ العجيبة فى الزراعة ؟ ثم إن العلوم الزراعية والتقنية لم تكن من التقدم فى ذلك العصر بحيث يمكن الوصول إلى هذه النتائج المذهلة فى ذلك الميدان . ترى هل هذا الكلام يدخل ضمن المجازفة التى رُمى بها اليسع بن حزم ؟

١١- انظر رسالته فى تفنيد انتقادات ابن سيدة له وانتقاده هو لخطبة ابن سيدة فى « الذخيرة » / قسم ٣ / مجلد ١ / ص ٣٧١ - ٣٩٢ .

١٢- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٣٣ .

١٣- رجعَت الباحثة إلى هذا الكتاب مخطوطاً ، لأنه لم يكن قد طُبع بعد .

١٤- ولعله مما يمكن الاستئناس به هنا أن أبا الأصبغ بن أرقم ، وكان وزيرا عند

على (ابن مجاهد هذا) ، قد أكد فى إحدى رسائله للمعز بن باديس صاحب افريقية أنه إنما بعث إليه بعد أن أعلم سيده بذلك ، مما يدل على أنه كان من الممكن أن يبعث الكاتب رسالة دون استئذان سيده وإعلامه ، وبخاصة إذا لم تكن رسالة سياسية إلى أحد الملوك بل رسالة شخصية من أديب إلى زميل له . انظر هذه العبارة من رسالة أبى الأصبغ فى « الذخيرة » / القسم الثالث / المجلد الأول / ٣٦٢ .

١٥- أو ابنه معز الدولة ، على خلاف فى ذلك .

١٦- انظر كليليا سارنللى تشركوا / مجاهد العامرى / ط١/ لجنة البيان العربى / ١٩٦١ م / ٥٠ ، ٥٦ ، ٦٠ ، ٧٥ ، ١٣٧ ، ١٣٩ ، ١٤٠ .

١٧- انظر محمد عبدالله عنان / دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى / ١٩٠ - ١٩٥ .

١٨- السابق / ١٨٨ .

١٩- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٩٠ - ٢٩١ .

٢٠- السابق / ٣ / ٢٣٦ .

٢١- ولا د. إحسان عباس أيضا . انظر كتابه « تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين » / ١٧٢ .

٢٢- السابق / ٣ / ٢٥٦ .

٢٣- السابق / ٣ / ٢٥٧ .

٢٤- السابق / ٣ / ٢٥٨ .

٢٥- السابق / ٣ / ٢٨٨ - ٢٨٩ .

٢٦- السابق / ٣ / ٢٩٠ .

٢٧- انظر كتابه « تاريخ الأدب العربى » / ٤ / ٦٨٣ .

٢٨- انظر السطور الخمسة الأولى من صفحة ٢٩١ من الجزء الثالث من « نوادر المخطوطات » .

٢٩- ج ١ / ص ٣٥٣ .

٣٠- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٣٧ - ٢٣٨ .

٣١- نوادر المخطوطات / ٤ / ٢٤١ .

٣٢- ص / ١٧١ .

٣٣- انظر « الذخيرة » / قسم ٤ / مجلد ١ / ص ٣٤ ، وكليليا سارنللى تشركوا / مجاهد العامرى / ٢١ .

٣٤- ط ١ / ص ٧٢ . ومع ذلك فلابد من التنبيه إلى أن بالنثيا لم يذكر عنوان الكتاب ، مكتفيا بالقول بأنه « فى فضائل الصقالبة » .

تلخيص وتحليل لرسالة ابن غرسية

تبتدىء رسالة ابن غرسية بالسلام فالعتاب على أن صديقه قد لزم حكام بجّانة العرب وترك غيرهم من الحكام الموالى ، مع أن أولئك لم يغنوه فتيلا فاضطرّ إلى الضرب فى البيد القفار . ثم أرجع ذلك إلى أنه ربّما كان ينظر بازدراء إلى الحكام الموالى ، مع أنهم صهب شهب ، وملوكٌ أبطالٌ أصحاب شهامة ومجد لم يعرفوا رعى الإبل الجرباء ولا الأغنام العجفاء .. ملوك من بنى الأصفر ضرّستهم الحروب وسكنوا القصور . ثم يعيب العرب بأنهم أبناء هاجر الأمة ، فهم أرقاء للموالى ، لأن هؤلاء أبناء سارة الحرة . وهو يمنّ على العرب بأن قومه قد تفضلوا عليهم فأعتقوهم من ربقة العبودية ، ولكنهم جحدوا تلك اليد ، مما اضطر أولئك إلى أن يدعّوهم حتى ألجأوهم إلى سكنى الجزيرة العربية .

ويمضى ابن غرسية فيلمز العرب بأن الأعاجم لم تلدهم صواحب الرايات ، أى العواهر اللائى ذُكر أنهن كن يضعن على بيوتهن فى الجاهلية رايات تعرّف طلاّبهن من بعيد أنها بيوت دعارة ، وبأن الحرب وطِلاَب المجد قد شغلاهم عن النساء

والخمر .

ويقارن بين ألوان من معيشة الأعاجم ومثلها فى حياة العرب : فأولئك يلبسون السندس والإستبرق ، وهؤلاء لايعرفون إلا البتّ قيظا وشتاء . وأولئك يحتسون النبيذ ، وهؤلاء اللبن الذى تدره الإبل . وأولئك يطعمون المشوى من اللحوم ، وهولاء يعيشون على حَبّ الحنظل وبيض الضبّ .

وهو يشير فيما يبدو إلى حادثة تاريخية ذكرها الأستاذ هارون (فى هامش ١ / ٢٥١) ، وتتلخص فى أن كسرى كان قد طلب من النعمان بن المنذر أن يزوجه احدى بناته ، ولكن النعمان لم يستجب له أنفةً وكبرا ، ناسياً أن الفرس أصحاب فضل ونعمة عليه وعلى قومه ، فاستدعاه كسرى وطرحه تحت أقدام الفيلة . ولكن إشارة ابن غرسية ، إن كانت فعلا تتعلق بهذه الحادثة ، هى إشارة غامضة يصعب ربطها بها .

هذا بالنسبة لليد التى كانت للفرس عند العرب . كذلك عطف عليهم الروم بدورهم نزعاً مع عرق القرابة التى يصلهم بهم (إذ يلتقون معاً فى إبراهيم عليه السلام : الروم

بوصفهم أولاد إسحاق ، والعرب بوصفهم ذرية إسماعيل) ، فسمحوا للهاربين من سيل العرم بأن يسكنوا الشام على شرط أن يؤدى المناذرة والغساسنة لملوك الأعاجم إتاوة على الرؤوس .

وعلى هذا يتساءل ابن غرسية عن سرّ هذا الغمز واللمز الذى يأخذ العرب به الموالى متنقصين من أحسابهم وأنسابهم وكأنهم أصحاب الفضل والطول عليهم ، مع أن العكس هو الصحيح .

وينطلق ابن غرسية فيقارن بين جهل العرب فى الجاهلية وعلوم الأعاجم من هندسة ورياضيات وفلسفة وآداب وتشريع وطبائع ودراسات دينية وطبية ، ثم يعرّج على ماقيل من أن سادن الكعبة فى قديم الزمان قد باع مفاتيحها لقصىّ بن كلاب فى مقابل زق خمر ، متخذا من ذلك دلالة على تدنى هممهم وأنهم على استعداد للتفريط فى أغلى وأسمى شىء لديهم مقابل شىء تافه حقير كهذا .

ثم ينتهى من هذا كله بأن على العرب ، مادام ماضيهم وأصلهم وأحسابهم بهذا الشكل ، أن يخرسوا فلاينطقوا أو

يفاخروا . نعم ، إن ثمة مفخرا دونه كل مفخر ، وهو النبى عليه الصلاة والسلام . لكن حتى هذا المفخر يستله ابن غرسيه من يد العرب فيقول إن محمدا عليه السلام هو ابن عمّ الأعاجم ، وإنه إذا كان عربيا من العرب فليس لهم حقّ فى الاعتزاء إليه والافتخار به ، فما أكثر مايوجد التبر فى التراب ، مع أنه لاعلاقة بين الأمرين . ومن هنا فإن ابن غرسية يفاخر بالنبى ويكاثر به الأمم جميعا ، ويصلى ويسلم عليه صلاة وسلاما بعدد الرمل ومدد النمل كما يقول .

وبعد ذلك يختم رسالته بتوعد ابن الحدّاد لأنه رفض أن يُقْبل مادحاً على مولاه ، الذى يثنى عليه ثناء شديدا ، ويؤكد له أنه سوف يندم ولكن حين لاينفع الندم . ثم يسلم عليه سلام مودّع .

وقبل أن أبدا فى تحليل الرسالة أحب أن أقول إنه ماكان ينبغى أن يقع هذا التفاخر بين أجناس المسلمين ، فالجميع بحمد الله إخوة فى الدين ، إنْ فَرَّقَتْهُمْ ألوانهم ودماؤهم فيجمعهم التوحيد ولسان الضّاد وانصهارهم فى أمة واحدة يسوسها سلطان

واحد وتضمهم دولة واحدة . فلم التفاخر والتنافر ؟ ويبدو أن العرب مسؤولون إلى حد كبير عن هذه الظاهرة . ذلك أنهم ، فيما نعرف ، قد شمخوا بأنوفهم على الأمم التى فتحوا بلادها ورأوا أنفسهم أعلى منهم مرتبة فسمّوهم من ثم بـ « الموالى » . بيد أننا فى نفس الوقت لاينبغى أن نغفل عن مشاعر الغيظ التى كانت تملأ قلوب هؤلاء لفتح العرب بلادهم ووجدانهم أنفسهم وقد تحولوا من أصحاب البلاد إلى محكومين خاضعين لأمة غريبة عليهم .. أمة كانوا إلى وقت قريب ينظرون إليها باستهانة واستحقار . فهذه المشاعر لاشكّ كانت تجد طريقها إلى الألسنة فيسمع العرب منهم إنكارا وتنقصا لقدرهم ، مما كان يدفعهم إلى مزيد من التعاظم والغطرسة .

كنا نحب ، كما قلنا ، ألا يقع هذا التفاخر . لكنه قد وقع للأسف ، وأصبح تاريخاً لاسبيل إلى إنكاره أو تجاهله . والمسألة الآن بالنسبة لنا هى مسألة نصّ أدبى علينا أن ندرسه ونحلل مضامينه ونقوّمه .

إن ابن غرسية فى أول مقارنته بين العرب والأعاجم قبل

الإسلام يجعل الأولين كلهم رعاة إبل وغنم ، ويجعل الأخيرين أجمعين ملوكاً وأبطالا . وهذا كلام غير موضوعى ، إذ لايمكن أن يكون جميع الأفراد فى أية أمة من الأمم من الملوك والأبطال . كذلك كان فى العرب ملوك وأبطال مثلما كان فى الأعاجم . فهذه إذن نقطة لامعنى لها فى كلام ابن غرسية . أما رعى الإبل والشاء فهى مهنة من المهن ، مثلها مثل الزراعة والتجارة والصناعة والصيد وسائر المهن . وحتى لو افترضنا جدلا أنها مهنة حقيرة فليس باختيارهم قد أقبلوا عليها وتركوا ماعداها ، وإنما البيئة هى التى فرضتها عليهم ، مثلما طبعتهم مثلا ببعض الفضائل النفسية والخلقية كالصبر على لأواء الحياة ، والصلابة فى وجه ظروفها الوعرة ، والاعتزاز الشديد بأنفسهم وأصولهم ، وإبائهم الضيم من أى إنسان كائنا من كان . وعلى أية حال ، فإذا كان العرب رعاة للإبل والغنم فقد عيّره ابن مسعدة بأن قومه سواس للخنازير (١) . فماذا يقول ابن غرسية فى هذا ؟

على أن أبا يحيى بن مسعدة قد جار عن القصد حينما

مدح العرب (فى معرض ردّه على هذا التحقير لهم من ابن غرسية) بأنهم « أنفوا المساحة والفلاحة ، وألفوا الاستباحة لامتلاء الراحة ... أغناهم من الأعمال المدنية والملكة البدنية إيضاع الشدنية وإنضاء الناقة الفدنية ، طلبا للاعتزاز ، وضربا فى مجاهل الأرض للابتزاز » (٢) . لقد فاته أن مايمدح به العرب إن هو إلاَّ الذم بعينه ، فإن الأنفة من الأعمال والصناعات من دلائل التخلف الحضارى ، إذ لاحضارة إلا بالعمل والإنتاج والاختراع . أما السلب والابتزاز فهو فعل الهمج المتوحشين الذين لايعصمهم قانون ولادين . وعلى أية حال ، فكون العرب كانوا قوما رحّالين إنما هو أمر أُلجئوا إليه بسبب قسوة الحياة فى الصحراء واضطرارهم من ثمة إلى التنقل سعيا وراء الماء والكلإ . وعلى هذا فليس فيه محلّ للتفاخر . كما أنه ليس شيئا يعاب عليهم .

ومما يعيب به ابن غرسية العرب أنهم أولاد هاجر الأمة . وماذا بالله فى هذا ؟ إن الناس إنما يتفاضلون ، عند أصحاب النظر الصحيح ، بمزاياهم الشخصية التى لهم دخل فيها : من

الخلق الكريم ، والعمل النافع لصاحبه وأمته والإنسانية ، والثقافة التى حصّلها بكدّه وسهره ، والذوق السليم الذى يطبع كلامه وسلوكه ... وهكذا . أما الحرية والعبودية الجسدية فينبغى ألا تجعلنا نرفع قوماً ونضع آخرين . وابن غرسية هو نفسه قد سُبى وهو صغير ، فكيف فتح على نفسه هذا الباب وهيأ للآخرين الفرصة لأن يَسِمُوه بأنه « عَبْدُ عَبْدٍ » (٣) ، إشارة إلى أنه كان مولى لمجاهد العامرى ، الذى كان هو أيضا مولى من الموالى ؟ ثم لاننس أن هاجر ، وإن كانت أمة ، فهى زوجة نبى وأم نبى (٤) . ومن وفاء المسلمين لدينهم أن يحترموا جميع الأنبياء . ولاشك أن من احترامهم لهم احترامهم لأمهاتهم وآبائهم ماداموا لم يكونوا كفّارا ولم يؤثر عنهم سلوك شائن يحط من أخلاقهم وأقدارهم . وابن غرسية حريص فى رسالته على أن يعتزى للإسلام ونبيه ، فهل كان يظن أن محمدا عليه السلام لو سمعه سيَرْحُب صدرا بهذا السخف الذى قاله ؟ أليست هاجر هى جدة محمد مثلما هى جدة العرب ؟

والغريب أن ابن غرسية قبل هذا قد اعترف بالآصرة التى

تربط بين العرب والروم حينما ذكر « العمومة الإسماعيلية » (٥) ، تلك العمومة التى يقول إنها عطفت هؤلاء على العرب فآووهم فى الشام بعد أن دمّر بلادهم سيل العرم . فإذا كان منشأ هذه العمومة هى هذه الأمَة فكيف لاق بالروم سلائل سارة الحرة أن يتذكروها ويعترفوا بها وينزلوا على مقتضاها ؟

على كل حال ، فابن غرسية حينما قال فى هاجر ما قال إنما كرر ماكان يقوله الشعوبيون قبله ، إذ كانوا يتفاخرون على العرب بأنهم هم أبناء الأحرار ، بينما العرب هم أبناء الأمَة . بل إنّ أبا نواس قد غلبته سفاهته تماماً وبلغ أقصى درجات الوقاحة حينما سماها « اللّخناء » (٦) ، مما دفع ابن قتيبة إلى الغضب لها ، متعجبا من أن يقع هذا من مسلم ، وهو لو صدر من ملحد لكان شيئا منكراً (٧) .

وإذا جرينا مجرى ابن غرسية فى التفاخر بما لامدخل ليد الإنسان فيه ، أفلا يمكننا أن نقول : أليست هاجر ، التى رُزق منها إبراهيم الخليل بأول أولاده ، خيرا من سارة ، التى لم تلد

إلا على كبرة ومشيب ؟ لكننا لانقول هذا ولانعتقده . إنما هو كلام بكلام . هذا ، ولانرضى ماوصف به ابن مسعدة سارة من الغدر حين أشار إلى حلفها أن تقطع ثلاثة أعضاء منها فأمرها إبراهيم عليه السلام أن تبر قسمها بثقب أذنيها وبالخفض (٨) .

كذلك فقد لمز ابن غرسية العرب تلميحا بأنهم أصحاب الرايات ، أى أبناء عواهر . وهذه أيضا سقطة فاحشة منه ، فإن فى كل أمة العفائف والزوانى والعواهر . وإذا كان لأحد أن يعيب العرب بهذا الذى عابهم به ابن غرسية ، بغض النظر عن صدق ذلك أو نفيه ، فإن الروم الذين ينتمى إليهم هم آخر من يحق لهم أن يفعلوا هذا . ذلك أن القوم منذ القديم قد شهروا بأنهم لايغارون على أعراضهم غيرة العربى على حريمه . وقد عير ابن منّ الله القروى وابن عباس ابن غرسية بهذا (٩) . ولأمرٍ ما كان العرب يهتمون أعظم الاهتمام بأنسابهم مهما بعدت ! وقد ردّ على ابن غرسية صاحب الرد الثانى المجهول بأن الفرس قد نكحوا أمهاتهم وبناتهم شريعة لهم متشبهين فى ذلك بالبهائم (١٠) . كما قال له ابن الدودين إن صواحب الرايات

هؤلاء إنما هن من بنات الأعاجم ، قد سباهنّ العرب وتركوهن يمارسن ما كنّ قد تعوّدن عليه من البغاء فى بلادهم (١١) . وذكّره ابن عباس بأن كسرى قد تمنى أن يتزوج واحدة من بنات العرب بخلع الضرس فتأبّى عليه النعمان (١٢) . وقد أضاف ابن مسعدة اتهامه إياهم بالأُبْنة قائلا إن سابور قد هيّأ غلمان الروم وزيّنهم ليطرقهم الفرس فصار الشذوذ فيهم وفى ملوكهم عادة (١٣) . ولم يكتف ابن مسعدة بهذا ، بل رمى ابن غرسية بالأُبْنة هو نفسه قائلاً له : « بهذا المحمّر ، يا مصفر استه ، حمِرْ وصفِرْ » (١٤) . والطريف أن ابن غرسية قد نسى أنه وصف المرأة العربية بالإحصان فى أول الرسالة حين أشار إلى اضطرار ابن الحداد إلى الضرب فى الأرض يمدح الملوك فقال له : « من ... حملك على مخالفة الحصان (يقصد زوجته ، وهى هنا رمز على المرأة العربية بوجه عام) ومحالفة الحِصان » (١٥) .

أما افتخار ابن غرسية على العرب بان الأعاجم يلبسون السندس والإستبرق ويطعمون المشوى من اللحوم فى الوقت الذى

كان العرب فى جاهليتهم يأكلون الهبيد ولايعرفون إلا البتّ صيفا وشتاء ، فحتى على افتراض اطراد هذا وذاك فى كل العرب والعجم فإنه لايعيب العرب . ذلك أن ظروفهم المعيشية هى التى فرضت عليهم ذلك . ولقد كان العرب يأكلون اللحم ويذبحون الناقة الكوماء لأضيافهم . وهنا يهجوه ابن مسعدة بأن العرب قد عرفت الحنيذ : حنيذ الجداء والحُملان وكوم متون الجفان ، واستمتعت بالألوان المختلفة من اللحوم ، ولكن بعد تذكيتها ، على عكس الأعاجم ، الذين كانوا يأكلون الميتة والنطيحة والموقوذة (١٦) . وصحيح ماقاله ابن مسعدة عن أكل الأعاجم الميتة والنطيحة والموقودة ، ولكن هل برىء العرب هم أنفسهم فى الجاهلية من هذا ؟ اللهم إلا أن يقال إن ابن مسعدة يقصد العرب بعد الإسلام . فإن كان فلنا على ذلك اعتراضان : الأول أن ابن مسعدة يقارن بين العرب والأعاجم فى الجاهلية لا فى الإسلام . والثانى أنه بعد الإسلام قد التزم المسلمون جميعاً ، عربا وعجما ، بهذا التشريع ، فلافضل إذن لعربى فى ذلك على عجمى ، فالكل مسلمون يذكّون .

كذلك ممّا يُرَدّ به على ابن غرسية أنه كان هناك بين الأعاجم قبل الإسلام بالتأكيد طبقات فقيرة مسحوقة ربما كان حَبّ الحنظل بالنسبة لها فى بعض الأحوال أملاً يشتهى . ويبقى الافتخار بالنبيذ واحتقار اللبن ، وهو مالا أفهمه من ابن غرسية ، الذى يحرص (كما قلت) فى رسالته على إبداء التشبث بالإسلام ونبيه . فهل يصحّ من مسلم أن يفتخر ، بجِدّ ، بالخمر ويحتقر اللبن شراب النبى عليه السلام ليلة مسراه ومعرجه ؟ إن اللبن هو شراب الفطرة ! ولن نقول ماعرفته الحضارة الحديثة بعد أن تقدم الطب من أن الخمر مدمرة للجهاز الهضمى والعصبى ... إلخ ، ولن نذكر مضارها الاجتماعية والخلقية ، فقد يقال إن هذا الكلام ماكان ابن غرسية ومعاصروه يعرفونه . ولنفترض أن الخمر أفضل من اللبن ، فكيف فات ابن غرسية أن العرب كانوا يشربونها ويسرف كثير منهم فى ذلك إسرافا شديدا بل جعلوها فى شعرهم إحدى مفاخرهم ؟ وإلا فلماذا نزل القرآن يحرم الخمر إن لم يكن العرب مولعين بها ؟ لقد بلغ منهم هذا الولوع أن كتاب اللّه لم يحرمها ضربة واحدة ،

بل استأنى فى ذلك وتدرج بهم خطوة بعد خطوة حتى استقادت نفوسهم له وسهل عليهم كسر هذا الطوق الخبيث .

وإذا كنا قد استغربنا من ابن غرسية أن يفاخر بشرب الخمر ، فقد وقع أيضا فى هذه الغلطة أبو يحيى بن مسعدة ، الذى قال عنها : « نحن اخترنا صِرْفها ، واختبرنا صفوها وعفوها ، وأخذنا فى الجاهلية وصفها ، وأهدينا النسيم شذاها وعَرْفها . ومنكم غارس حُبَلها وآبرها ، ومنقِّحها وزابرها ، وسالف سليلها وعاصرها . ومنا أبوعُذرها وفاطرها ، ومديرها بحديث الركبان ومعاقرها » (١٧) ... إلخ هذا السخف الذى ينبغى أن يتنزه عنه المسلم ، لأنه افتخار بالجاهلية وآثامها التى طهر الإسلام أتباعه منها .

أما إشارة ابن غرسية إلى ماكان للفرس والروم على العرب فى الجاهلية من صولة وسلطان فهذا ، وإن كان صحيحا ، ينبغى ألا ينسينا أن مملكتى المناذرة والغساسنة ، حسبما يقول المؤرخون ، كانتا تقومان بدور السدّ الذى يدرأ عن الفرس والروم هجوم الأعراب على إمبراطوريتهم وعيثهم فى البلاد فساداً .

فهذه واحدة . والثانية أن بعض القبائل العربية قد استطاعت أن تهزم الفرس فى يوم ذى قار (١٨) عشية بزوع الإسلام . وكان هذا الانتصار مبعثا لحمية بعض شعراء الجاهلية الذين مجدوه فى قصائدهم . وثالثة : أن العرب فى جزيرتهم لم يكن لأحد عليهم سلطان ، اللهم إلا ماكان للأحباش فى الجنوب لبعض الوقت قبل مجىء الإسلام . ورابعة ، وهى الأخيرة : أن العرب بعد الإسلام قد انقضوا كالصواعق على الإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية ، فمحوا الأولى محوا، واقتطعوا من جسد الثانية أعزّ وأسمى أعضائها ، ثم ساحوا فى البلاد ففتحوا من الصين إلى المحيط الأطلسى . صحيح أنها بركة الإسلام ومؤازرة السماء ، ولكن العرب كانوا هم أداة ذلك والحاصدين لثماره . وصحيح أيضا أن الزمان قد دار دورته وطغى العرب وفسدوا ، ولكن هذه مسألة أخرى ليس هذا موضعها . وعلى أية حال ، فإن هذا هو مصير الفاتحين جميعاً : يعلون ويعلون ويعلون ، ثم إذا بهم يُسْتَدْرجون من خلال أخطائهم وخطاياهم إلى الحضيض كرة أخرى ! ومع ذلك فإن الإسلام لايزال باقيا فى معظم البلاد التى

فتحها العرب ، ولايزال لسانهم هو لغة أقوام كُثُرٍ أضحوا يعدون أنفسهم عرباً من العرب ، ولايزال التراث المكتوب بهذا اللسان هو أضخم تراث .

وعلى مقارنة ابن غرسية بين جهل العرب فى جاهليتهم وعلوم الأمم الأخرى لنا عدة تعليقات : إن ابن غرسية يقارن بين العرب وحدهم من جهة وبين الأمم المتحضرة قديما كلها من جهة أخرى . وهذا ظلم . وقد نبّه إلى هذا ابنُ مسعدة ، وبيَّن أن ابن غرسية إنما يفتخر بعلوم اليونان وبنى ساسان والكلدانيين والبابليين ، مما لاناقة لقومه فيه ولاجمل (١٩). ومثله فعل صاحب الرد المجهول (٢٠) .

والواقع أن ابن غرسية ليس بدعا فى هذا ، فالشعوبيون كانوا إذا نافروا العرب كدّسوا أمامهم كل الأمم الأخرى وفاخروهم بفضائلها جميعا . وقد ذكر ابن عبد ربه من ذلك قولهم يناجزون العرب : « إن لنا ملوك الأرض كلها من الفراعنة والنماردة والعمالقة والأكاسرة والقياصرة . وهل ينبغى لأحد أن يكون له ملك سليمان ... ؟ ... أم هل كان لأحد مثل

ملك الإسكندر ... ؟ ... وكيف ومنا ملوك الهند ؟ ... و ... إن منا الأنبياء والمرسلين قاطبة من لدن آدم ماخلا أربعة : هودا وصالحا وإسماعيل ومحمدا ... » (٢١) . ويبدو أن الذى دفع الشعوبيين إلى هذا أنهم يرون العرب يلوون أعطافهم تعاليا على كل الأمم التى فتحوا بلادها ناعتين إياهم بالموالى . وقد قلنا ونقول إن فى هذا المسلك من العرب أيضا ظلما وإجحافاً وقلة عقل . فالناس جميعاً إخوة : أبوهم آدم ، وأمهم حواء . وفى الإسلام لافضل لعربى على أعجمى إلا بالتقوى والعمل الصالح . ولايمكن بطبيعة الحال الادعاء بأن العرب كلهم كانوا أتقى من الأعاجم كلهم . وحتى لو كان فإن التقوى نفسها عاصم لصاحبها من أن يشمخ بتقواه على الآخرين وإلا حبط عمله . وإذا نسى العرب فى غمرة مجدهم وقوتهم وعزمهم هذا فهاهم أولئك الموالى يذكّرونهم . وياله من تذكير ! بيد أن هذا العيب لم تبرأ منه أمة من الأمم الفاتحة المنتصرة قديما أو حديثا . وفى العصر الحديث سمعنا بـ « الرجل الأبيض » و « رسالة الرجل الأبيض » . وقد كان الأوربيون يسبحون ، أو بالحرى

غارقين ، فى بحار التخلف والوحشية والجهالة يوم كان العرب والمسلمون سادة العالم . ولكنها نشوة النصر والغلبة : تُسْكر وتُذهل !

ومع هذه الملاحظة التى أخذناها على ابن غرسية فإننا نسلم بأن عموم العرب فى جاهليتهم كانوا متخلفين بالقياس إلى الأمم الأخرى التى ذكرها . قلت : « عموم العرب » ، لأن أهل الجنوب منهم كانت لهم حضارتهم ودولهم وعلومهم .

وقد حاول ابن منّ الله القروى أن يثلم هذا السلاح الذى استله ابن غرسية على العرب فهوّن من شأن بعض هذه العلوم كالهندسة مثلاً ، التى رأى أنها لاغُنْيَةَ فيها ، وأن العرب انصرفوا عنها لأنها مهنة من المهن وهم يحتقرون المهن . وأنهى كلامه فيها بأنها لما كانت داخلة فى العمل لا فى العلم فهى إذن أرذل القسمين (٢٢) . أمَّا علم الجيومطريقى الذى فسره بعلم الهيئات والطوالع فقد قال عنه إنه إذا كان المقصود بذلك مايقال من أن الطوالع مدبرة مقبلة فهو أصول فاسدة ، وإن كان المراد العيافة والزجر والقيافة فقد كان للعرب فيه اليد الطولى ،

إذ عرفوا السوانح والبوارح ، والأيامن والأشائم ، والتمائم والرتائم ، وإن كان منهم من لايعتمده . كما عرفوا الكهانة أيضا . وبالمثل يؤكد أنهم قد جمعوا الطب فى كلمتين لاغيرهما : « المعدة بيت الداء ، والحمية رأس الدواء » ، وليس فى الطب شيء بعد هذا . أما فى الموسيقى والتلاحين فبعد أن أكَّد إحاطة العرب بها وتبريزهم فيها عاد فعدّها من العلم المذموم (٢٣) .

ولاشك أن القروى قد جانبه الصواب فى معظم ردّه هذا ، فتحقيره لعلم الهندسة يدل على ضيق أفق علمى وحضارى معاً . وهل تتقدم الأمم وتقوى إلا بهذا العلم وإخوته سائر العلوم ؟ (٢٤) ومثل ذلك ثناؤه على العرب بأنهم كانوا يستعلون على الأعمال اليدوية . أما تعريفه للجيومطريقى بأنه علم الهيئات والطوالع وتفسيره ذلك فى أحد القولين بأنه العيافة والزجر والقيافة والكهانة فليس إلاَّ خبط عشواء . ثم إن مدحه العرب بأنهم كانوا يعرفون التمائم والرتائم والأيامن والأشائم والسوانح والبوارح فهو افتخار بماجاء الإسلام لإبطاله وتخليص

حياة العرب من رجسه وخرافاته وظلماته . كذلك لاشكّ أن الطب أوسع وأعقد من أن يُجْمَع فى كلمتين ، فالأمراض لاحصر لها ، وعلاجاتها من الصعوبة والتعقيد بمكان . كما أنه ليس منشؤها كلها المعدة ، فأمراض الرئة والعيون مثلا لاعلاقة لها بالبطن ، ومثلها أمراض البلهارسيا والإيدز والسرطان والكسور وعلاج لدغة العقرب والثعبان وغيرها ، مما لسنا فى حاجة إلى تعداده لأنه معلوم لكافة الناس الآن ، فضلا عن الأمراض النفسية وعمليات التجميل وزراعة الأعضاء ... إلخ . أما موسيقى العرب فى جاهليتهم فلا أظن إلا أنها كانت موسيقى بدائية تناسب المستوى الحضارى الذى كان لهم . وأمّا ذكره معبدا والغريض فى هذا السياق فلا محلّ له ، لأن المقارنة إنما هى بين العرب والأعاجم فى الجاهلية . ثم يبقى الحكم الشرعى الذى أورده عن الموسيقى والغناء ، وهو رأى بعض الفقهاء لا كلّهم . والموسيقى والغناء الراقى من الوسائل المهذبة للشخصية والذوق ، والملطفة لأحزان الإنسان وقلقه ، والمثيرة لمشاعر الشجاعة والحمية والإقدام .

وقد اهتم ابن عباس فى ردّه على هذه النقطة بإبراز معارف

العرب الفلكية المؤسسة على مجرد الملاحظة والذكاء دون الاستعانة بآلات أو حسابات . أما كلامه فى العيافة والقيافة والتمائم والرقى ... إلخ فقد جاء مشابها لما عند القروى . وفى تعرّضه للموسيقى العربية ذكر البمّ والزير ، والمثلث والمثانى ، والثقيل الأول والثانى ، وجرادتى عاد (٢٥) ، مما لم يأت فى ردّ أحد غيره من الذين ندرسهم هنا .

وبالنسبة لإشارة ابن غرسية إلى تسليم أبى غبشان مفاتيح الكعبة لقصى بن كلاب فلم ير أبو يحيى بن مسعدة فى مقايضة المفاتيح بزق خمر مايعاب مادامت المفاتيح قد عادت إلى أصحابها ورثة الملة الإبراهيمية والدعوة الإسماعيلية (٢٦) . أما صاحب الردّ المجهول فينفى أن تكون الصفقة قد شابها أى غش أو خداع (٢٧) . ويفترض ابن الدودين جدلاً أنها كانت فعلا سفاهة وتفريطا من أبى غبشان ، لكنه يتساءل : « أين تقع فى قضية إمامكم يهوذا الحوارى ، إذ باع نبيه روح القُدُس ، من أعوانه بالأفلس ، فكذب الله ظنه ، وأنجى نبيّه ؟ » (٢٨) .

ويبقى افتخار ابن غرسية بالنبى عليه الصلاة والسلام وثناؤه الجمّ عليه وقوله عنه : « ابن عمنا ، الذى بالبركة عمَّنا » . وقد انبرى أبو يحيى بن مسعدة نافيا أن يكون الرسول الكريم هو ابن عمهم ، و « ابن عمكم الطاغوت ، وسيدكم البَرَهْمَن والبرهوت (٢٩) . شتان مابين النجوم الطارقة والشموس الغارقة وبين سقاط الجرامقة ومُقّاط الأفارقة (٣٠) ، الوُضر الأنذال ، والبُخْر السّبال . لاغسل ولاطهارة » (٣١) . كما سخر من دعوى ابن غرسية أن النبى عليه السلام قد عمّ الروم بالبركة ، متسائلا تساؤل من يجهل مقصد ابن غرسية فيما يبدو : « بأى بركة خصكم صى الله عليه وسلم أو عمّكم ؟ » (٣٢) . والواقع أن ابن غرسية قد حدّد نوع هذه البركة ولم يتركها مجهَّلة ، فقد قصد أن الله سبحانه قد استنقذهم به من التثليث وعبادة الصلبان مثلما نجى به العرب من عبادة الأصنام والأوثان ، فعمت البركة بهذا الروم والعرب معاً (٣٣) .

ذلك ، ولاشكَّ أن دعوى ابن غرسية أن التّبر قد يكون فى التراب مع أنه لا وشيجة بينهما هى دعوى صحيحة . وكذلك

لاشكَّ أن عظمة النبى عليه السلام لاتستلزم بالضرورة أن يكون العرب هم أيضا عظماء . ولكن صحة هذا إنما هى صحة نظرية . أما فى الواقع التاريخى فقد كان للعرب محاسنهم ومساوئهم ، وهذه المحاسن والمساوىء تختلف وتتغيّر باختلاف الظروف والأزمنة والأمكنة . وفى عهد الدعوة المحمدية قد أتعب العرب النبى الكريم فى بداية الأمر ، وكانت استجابتهم لدعوته بطيئة وضعيفة . ولكن لما وقعت الهجرة ابتدأت الأمور تأخذ مساراً آخر ، وانتهى أمرهم معه صلى الله عليه وسلم بأن آمنوا جميعا به وحملوا أرواحهم وسلاحهم وانطلقوا يفتحون البلاد جهاداً فى سبيل اللّه ورغبة فى الفوز بالجنة والمجد فى الدنيا . ولا أظن جيلاً يفعل هذا الذى فعله العرب آنذاك إلاَّ وهو ذو فضائل وسجايا عظيمة . ولكن لو أن العرب ظلوا بروح أسلافهم الأوائل من صحابة الرسول عليه السلام ولم ينظروا من عل إلى أبناء الأمم التى غلبوها فلربَّما لم يكتب ابن غرسية رسالته هذه يشنّع فيها عليهم ويحاول جهده أن يمرغ أنوفهم فى التراب .

هذا مجمل رأيى فى العرب ، القوم الذى أنا واحد منهم ،

قُلْتُه مراعياً فيما أعتقد الحقّ والحياد ، ولم أمل إليهم ولاتجهمت بطبيعة الحال لهم أو افتأتّ عليهم . أما قول ابن أمن الله القروى إنه مامن عربى إلا وهم خير الأمم فهو كلام لاينهض على أساس معقول . ومثله قوله إنه مامن مضرى إلا وهم خير العرب ، ولاقرشى إلا وهم خير مضر (٣٤) . ذلك أنه ما من أمة أو ما من طائفة من البشر إلا وفى أفرادها الطيب والشرير ، والفاضل والمفضول . أما الزعم بأن أمة من البشر مثلا كل فرد من أفرادها أفضل من أى واحد ممن عداهم من الأمم فهو زعم متهافت ومرفوض . والعجيب أن الجاحظ الذى يحكّم عقله فى كل شىء ويقلّب أى موضوع ظهراً لبطن قبل أن يمتشق قلمه ويكتب فيه قد قال أيضا من قبل « إنه ليس فى العرب لقريش نظير، كما أنه ليس فى الناس للعرب نظير » (٣٥) . ولكنه (كما نرى) لم يغل غلوّ القروى فلم يجعل كل فرد من قريش أفضل من أى واحد غيره من العرب ، ولاكل فرد من العرب أفضل من أى واحد ممن سواهم . وعلى أية حال فليس هناك عاقل يدعى أن العرب فى هذا العصر الذى

نحن فيه الآن مثلا هم نفس العرب الذين كانوا من حول النبى عليه السلام ، إذ أين الثرى من الثريا ؟ وأين التراب من التبر ؟ إن عرب البعثة قد رجّوا العالم وشكّلوا التاريخ حسب إرادتهم ، وكانت السماء معهم تباركهم وتنصرهم . أما عرب اليوم فقد تجردوا تقريبا من كل قيمة : علمية أو سياسية أو اقتصادية أو إدارية أو رياضية . وهاهى ذى الأمور تُقْضَى فى حضورهم وغيابهم على السواء دون أن يُسْتَأذنوا أو يُسْتَشَاروا ، أو حتى يعلموا .. مجرد علم !

الهوامش

١- انظر ردّ أبى يحيى بن مسعدة فى « نوادر المخطوطات » / ٣ / ٢٧١ .

٢- السابق / ٣ / ٢٨٣ .

٣- السابق / ٣ / ٢٨٩ .

٤- قال البلوى فى ذلك : « أليس إبراهيم الخليل عليه السلام خليلها وضجيعها وحليلها ؟ أليس إسماعيل الكريم ولدها » (ألف باء / ١ / ٣٥٢ - ٣٥٣) .

٥- السابق / ٣ / ٣٥١ .

٦- وإن كانت فى الديوان « الرعناء » / مطبعة مصر والحميدية / ١٢٧ .

٧- انظر « كتاب العرب » لابن قتيبة فى « رسائل البلغاء » لمحمدكرد على / ط ٣ / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٦٥ هـ - ١٩٤٦م / ٣٥١ - ٣٥٢ ، والعقد الفريد / المطبعة العامرة الشرفية / القاهرة / ١٣٠٥ هـ / ٧١ - ٧٢ .

٨- السابق / ٣ / ٢٦٦ .

٩- السابق/ ٣ / ٣١٢ - ٣١٣ ، والذخيرة / قسم ٣ / مجلد ٢ / ٧٥٢ .

١٠- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٩٧ .

١١- السابق / ٣ / ٣٠٢ . وقد قال ابن مسعدة مثل ذلك . انظر ص / ٢٦٧ - ٢٦٨ .

١٢- الذخيرة / قسم ٣ / مجلد ٢ / ٧٥٢ .

١٣- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٧٢ .

١٤- السابق / ٣ / ٢٥٧ . وانظر كذلك ص / ٢٥٩ ، حيث يقول له إن العرب قد صرّفت ألفاتها فى حلقة ميمه . والمعنى واضح .

١٥- ص / ٢٤٦ .

١٦- السابق / ٣ / ٢٨١ - ٢٨٢ .

١٧- السابق / ٣ / ٢٨٢ .

١٨- أشار إلى ذلك اليوم ابن من الله القروى (نوادر المخطوطات / ٣ / ٣٢٠) ، وابن عباس (الذخيرة / قسم ٣ / مجلد ٢ / ٧٥٢) .

١٩- السابق / ٣ / ٢٧٥ .

٢٠- السابق / ٣ / ٢٩٨ .

٢١- ابن قتيبة / « كتاب العرب » فى « رسائل البلغاء » لكرد على / ٣٥٤ ، والعقد الفريد / ٢ / ٦٩ - ٧٠ .

٢٢- السابق / ٣ / ٣٢١ .

٢٣- السابق / ٣ / ٣٢١ - ٣٢٥ .

٢٤- للأسف وجدت الفقيه والمفكر العظيم ابن حزم ينظر هو أيضا إلى علوم الرياضيات والمساحة والطب بشيء غير قليل من عدم الاكتراث . وحجته فى ذلك أن نفعها دنيوى ، ومن ثم فهو نفع قليل ، و « كل علم قلت منفعته ولم تكن مع قلتها إلا دنياوية وعاش من جهله كعيش من علمه ، مدة كونهما فى الدنيا ، فإن العاقل الناصح لنفسه لايجعله وكده ولايُفنى فيه عمره ، لأنه ينفق أيام حياته التى لايستعيض فى الدنيا منها فيما لاضرورة إليه ولاكثير حاجة تدعوه نحوه » (من « رسالة التوقيف على شارع النجاة » فى « رسائل ابن حزم » / تحقيق د. إحسان عباس / ط ١/ المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٨١ م / ٣ / ١٣٢ - ١٣٣) . والحق أنى لا أدرى كيف صدر عن ابن حزم المفكر العظيم هذا التفكير . ألا

يعلم أنَّ المتخصصين فى كل فرع من فروع المعرفة يلزمهم أن ينفقوا كل مايستطيعون من وقت وجهد فى إتقان تخصصهم ، وحلّ مشكلاته ، وترقية أدواته ، والعمل على تطبيق نتائج البحث فيه لمنفعة البشرية ، ومحاولة سبق الزّمن لمواجهة المتاعب والعقبات قبل الوصول إليها ... إلخ ؟ إن هذا هو الفرق بين التحضر والتخلف . والدين ، الذى يحرص عليه ابن حزم ويغار أشد الغيرة ولايُجِلّ من العلوم إلاَّ ماكان مرتبطاً به ومعينا عليه ، لايمكن أن يعزّ ويقوى إلا بعزّة أهله . وهم لايستطيعون عزّة ولاقوة إن أهملوا علوم الدنيا تلك . وأمم الغرب التى استعمرتنا وأذلتنا وسيطرت على العالم وأكلت خيراته وألقت فى قلبه الرعب إنما بلغت ذلك بوسائل كان العلم على رأسها . والإسلام يحضّ على العلم والمعرفة ، لايفرق فى ذلك بين علم الفقه والعقائد وبين علم الطب أو المساحة أو الكيمياء . والعلم كلّه لون رفيع من ألوان العبادة . فكيف نسى مفكرنا العظيم ذلك ؟

ومع هذا فإنه فى رسالة أخرى من رسائله قد قال شيئا مختلفا ، وهو أن « علم الحساب والطب أيضا من العلوم الرفيعة . فمن طلب علماً من ذلك لينتفع به الناس فى القسمة والعلاج وحساب مقابلتهم فهو مأجور . وتعلُّم هذا المقدار فرض على الكفاية ، إذ لو جُهل هذا لضاع كثير من الدين ، كحساب الوصايا والمواريث ومعرفة البيوع وغير ذلك . ومن طلبهما ليكتسب منهما فمأجور أيضا . ومن طلبهما ليتوصل بهما إلى الظلم فآثم فاسق » (من « رسالة التلخيص لوجوه التخليص » فى « رسائل ابن حزم » / ١٦٤) . وهذا هو الذى يليق بمفكر عظيم كابن حزم .

٢٥- الذخيرة / قسم ٣ / مجلد ٢ / ص ٧٥٠ - ٧٥١ .

٢٦- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٧٠ .

٢٧- السابق / ٣ / ٢٩٧ .

٢٨- السابق / ٣ / ٣٠٧ .

٢٩- البرهمن هو الذى ينسب إليه مذاهب البراهمة الهنود . والبرهوت وادٍ بحضرموت يُعْتَقَد أن أرواح الكفار تأوى إليه . انظر هامش ٤ / ص ٢٨٨ / حـ ٣ من « نوادر المخطوطات » .

٣٠- المُقَاط : جمع « ماقط » ، وهو مولى المولى ، كما فسرها فى الهامش الأستاذ هارون ، رحمه الله .

٣١- السابق / ٣ / ٢٨٨ .

٣٢- نفس الصفحة .

٣٣- السابق / ٣ / ٢٥٢ .

٣٤- السابق / ٣ / ٣٢٩ .

٣٥- انظر محمد كرد على / أمراء البيان / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٥٥ هـ / ٢ / ٤٥٠ .

أولى هـذه الملاحظات أن فى بعض هذه الردود غموضا أحيانا . ويتجلى هذا الغموض بقوة فى رسالة أبى يحيى بن مسعدة . وبعض هذا الغموض قد يكون سببه الإيجاز الذى اعتمده الكاتب والاكتفاء بالإشارة دون التصريح والتفصيل . وقد يرجع إلى عسر فى العبارة . ولعلَّ منشأ ذلك بدوره (ولو جزئيا) هو عملية تحقيق النص . ولكى يدرك القارىء هذا فإنه يمكنه أن يرجع إلى الردّين المشتركين بين « الذخيرة » و « نوادر المخطوطات » ، وهما رسالتا ابن الدودين وأبى الطيب القروى ، وسوف يجد اختلافاً بين النصين فى عددٍ من المواضع .

خذ مثلاً قول أبى يحيى فى بداية ردّه : « وتالله لاتغسلك معى الحواريون ، بعد أن أتقدم لتأديبك ، وأفضح فى الحقين عِذرة أديبك ، مناقلك فى الأراجيز، وناقلك إلى معرض التعجيز ، شيخ الاعتزال ، وصريع أهل السنة إذا تداعوا : نزال ، الأعمى البصر والبصيرة ، وشعوبى هذه الجزيرة ... لشدّ ماسمّع بك فى الأملاء ، وسرّك بالإجراء فى الخلاء ، وأرسلك

سائما ورتع فى خلاء . كفتْه فى معانى القرآن زُحلوفاته الزُّلّ الضُّلّ ، وكَمَتْه فى نحوه عثراته التى يدمى منها الأظلّ ، مُمَاتِحُك فى الدُّلىّ والدَّوِىّ ، ومُطَارِحُك السلام على ذى الرويّ المرويّ . لقد أعلّك بواضحها وأبلّ ، وأغلّك من فاضحها ما أسلّ ، ورماك يارجيم بدائه وانسلّ ، فتصنعت بمعار حُلاه ، وتنطقت بما تلاه ، وتشبّعت بالعار الذى تولاه ، كالخصىّ يفتخر بمتاع مولاه » (١) . فهذا الكلام على طوله النسبى لانعرف من المقصود به . ولقد ذكر عبدالسلام هارون (٢) أنه قد يكون المقصود به ابن سيدة . لقد استبعدتُ من قبل أن يكون ابن سيدة شعوبيّاً . غير أن من الممكن أن يراه بعض معاصريه كذلك ، حقدا منهم عليه أو كراهيةً له أو إساءة فهم لبعض مواقفه أو تآليفه أو تشنيعا عليه لإسقاط منزلته أو لأنه كان صديقاً لمن عُرِفت عنهم الشعوبية ... إلخ . وعلى ذلك فلست أستبعد أن يكون ابن سيدة هو المقصود بهذا الكلام لمجرد أننى لا أرى أنه شعوبى ، بل لمافى باقى الكلام من إشارات لا أراها تنطبق على ابن سيدة : فهل لابن سيدة تأليف فى معانى

القرآن ؟ وهل عُرِف الرجل بالاعتزال ؟ وهل كانت بينه وبين علماء أهل السنة هناك منازلات كلامية ؟ وهل له أراجيز ناقل بها ابن غرسية ؟ ثم قبل ذلك كله هل يمكن أن يكون ابن سيدة وراء رسالة ابن غرسية هذه بما فيها من عنف على العرب وخروج على الأقل على الذوق والشعور الدينى فى الكلام عن هاجر رضى الله عنها جدة رسول الله وأم إسماعيل وزوجة إبراهيم عليهم جميعا الصلاة والسلام ، مع ماهو معروف عن ابن سيدة من تدينه وتحرجه ؟ (٣) لكلّ هذا أجد أن فى هذه الفقرة التى نقلتها من كلام أبى يحيى غموضاً ، وهو غموض منشؤه عدم الإفصاح باسم من يتكلم عنه . ولو فعل لكفانا مؤنة ضرب الأخماس فى الأسداس .

وإذا أردت مثالاً على الغموض الناشىء من عسر التعبير فيمكنك أن تحاول فكّ معنى قوله فى نفس الفقرة السابقة : « مُماتحك فى الدُّلىّ والدَّوِىّ ، ومطارحك السلام على ذى الرويّ المروى » .

ولعلّ أسهل رسالة فى الرد على ابن غرسيه وأوضحها هى

رسالة ابن منّ الله القروى (٤) .

كما يلاحظ أيضا أن كلّ أصحاب الردود التى تناولناها مع رسالة ابن غرسية هنا قد اتهموه بالكفر ، ومعظمهم تعامل معه على أنه نصرانى ، فيقول له ابن مسعدة : « وبعد قرع صفاك وصفع قفاك ، ننتقل إلى نَقَلة أديانكم وجهلة أحباركم ورهبانكم ، وإقامة أقانيمكم الثلاثة فى سنودساتكم الست وهذيانكم » (٥) ، وينادية مع سائر بنى جنسه بـ « عبدة التثليث ، وشردة أجزاء الثالوث » (٦)، ويبكته بما يقوله النصارى فى السيد المسيح عليه السلام من أنه ثالث ثلاثه ، أى بوصفه واحدا منهم يقول بمثل مايقولون ... إلخ . ويقول صاحب الرد المجهول فى أثناء كلامه عن الكعبة موجها الخطاب إلى ابن غرسيه : « ذلك بيت الله لابيوت نيرانكم ، وشعاره لاشعار صلبانكم ... إن القرآن ليس بديوانكم ، ولا الكعبة من زخاريف إيوانكم » (٧) . ويلاحظ أنه قد ذكر بيوت النيران ، وهى للمجوس . وأغلب الظن أنه قصد تحقير المجوس مع النصارى لافتخار ابن غرسية بالفرس مع الروم كما سبق أن

وضّحنا . ويهدده ابن الدودين بأنه سوف يجعل الأرض عليه على رحبها أضيق من سَمّ الخياط ، أو « تشوّه محياك ، وتحلق سبالك من قفاك ، وتحتزم بزنّارك ، وتلحق بأديارك » (٨) . ويسمه أبوالطيب القروى بالارتداد عن الملة : « لقد تجرّأت ، ومن الملة تبرأت » (٩)، ويؤكد له أنه لو قُتِل لكان القتل عقوبة أخف من الجرم الذى اجترحه : « ولو اختُرِمْت ما وفى بما اجترمت » (١٠) . ويدخله ابن عباس مع قومه الروم بوصفه نصرانيا مثلهم قائلا له : « صلبتم إلهكم » (١١) ، ثم يعرّض به فى خاتمة رسالته ، إذ يقول : « والسلام على من سلم من الهُجْر لسانه ، وسلم من الكفر قلبه وجنانُه » (١٢) .

وقد أشار البلوى إلى تفسيق العلماء وتبديعهم لابن غرسية بعد تأليفه رسالته ، بل واتهمه بالزندقة لبغضه العرب ، الذين « لايبغضهم إلا زنديق أو من حاد عن الطريق ، كما يذكر عن أبى عامر بن غرسية البشكنسى أنه أنشأ رسالة يفضل فيها العجم على العرب ، ظن فيها أنه أعرب وأغرب ، ففُسِّق وبُدِّع ، وسُبَّ بسببها وجُدِّع » (١٣) ، كما قال فيه من قصيدة

يعلق بها على رسالته وماحوت :

إذا قيل : من ؟ قالوا : ابن غرسيةٍ . كفى بـه شرفـا أن النصارى لـه إلـف (١٤)

وهو يتعجب كيف أفلت ابن غرسية من القتل جزاءً على ماكتب . ويجوّز لذلك أن يكون قد كتم رسالته فلم يظهرها لأحد أو أطلع عليها فقط خلانه المقربين ، ثم انكشف أمرها بعد هلاكه ، مما تعرضنا له قبلا ورددنا عليه . كما أنه لايستبعد أن يكون قد تاب ، فالسرائر وماتخفى الضمائر لايعلم بها إلا اللّه (١٥) .

هذا ماكتبه فى عقيدة ابن غرسية أصحاب الردود التى ندرسها فى هذا البحث . والواقع الذى لاينبغى أن نسهو عنه هو أن ابن غرسية لم يدافع فى رسالته عن النصرانية ولاعدَّ نفسه واحداً من النصارى ، بل أعلن إيمانه باللّه ورسوله صلى الله عليه وسلّم ، واعترف له بالجميل الذى عمّ به قومه مع العرب، ألا وهو استنقاذهم من كفر التثليث ، مثلما خلّص العرب من كفر الوثنية . ولكى يكون متسقا مع نفسه فى هجومه الضارى على العرب وثنائه الجم على رسول الله وهو عربى مثلهم ، فإنه استلّه منهم قائلاً إنه التبر ، وهُمُ التراب ، ولاصلة بين

الاثنين . وهذا يذكرنى بماقاله الرسول لحسان بن ثابت شاعره حينما هجا قريشا وأهل مكة فقال له الرسول : أتهجوهم وأنا منهم ؟ فرد عليه بهذه القوله البارعة : « لأسلنّك منهم كما تُسَلّ الشعرة من العجين » (١٦) . ولعل ابن غرسية كان فى ذهنه هذا الردّ وهو يشتم العرب . قد يقال إن ابن غرسية حينما أثنى على الرسول وأعلن تصديقه به ونفاه عن العرب إنما كان يدارى بذلك كفره ، فهو يتظاهر بالإسلام على حين أنه فى الحقيقة زنديق (١٧) . وهذا ممكن ، ولكنه داخل فى أسرار القلوب التى لاسلطان لنا عليها ولاعلم لنا بها . إلاَّ أن كلامه فى حقّ هاجر هو كلام يتنافى مع مشاعر الإيمان الحقة . فهل يمكن أن يكون العناد للعصبية هو الذى جرّه إلى هذا دون أن يقصد حقا تحقيرها ؟ لكن إن صح ذلك ألم يكن بإمكانه أن يمحو هذا الكلام من رسالته قبل أن يذيعها ؟ كذلك فإن مدحه قومه بأنهم شربو خمر وهجاءه العرب بأنهم شرّبو ألبان مما يتنافى مع النظرة الإسلامية . لكننا رأينا أن بعض من ردّوا عليه قد سقطوا فى مثل ذلك .

وممّا تجدر الإشارة إليه فى هذا الصدَّد أن اثنين من علماء التفسير (أحدهما قديم ، ومن الأندلس أيضا ، وهو أبو حيان . والثانى من العصر الحديث ، وهو العلامة الألوسى العراقى صاحب التفسير الشهير) قد ذكرا رسالة ابن غرسيه وموضوعها ، ولم يتهماه فى دينه بشىء : فهل كان ذلك لأنهما لم يريا فيها مايمسّ دينه ويكفّره ؟ أم لم يكن السياق مناسبا للدخول فى هذه القضية ؟ ذلك أنهما قد ذكراها ، وذكرا شعوبية أبى عبيدة ، أثناء تفسير كل منهما لقوله تعالى من سورة « الحجرات » : « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ... » . لكن السؤال هو : كيف اتسع السياق لأن يذكر أبو حيان والألوسى أبا عبيدة وشعوبيته وكتابه فى مثالب العرب ، وابن غرسيه ورسالته ويصفاها بأنها « رسالة فصيحة فى تفضيل العجم على العرب » ، ويشيرا إلى رد العلماء عليها، ولايتسع لكلمة سريعة عن رأيهما فى دينه ؟ (١٨)

هذا، ولابد من القول إن فى حديث ابن مسعدة عن

النصرانية وعقائدها وتاريخها وبعض مجامعها المقدسة لمايدل على معرفة واسعة بتلك الديانة . وأحب أن أقف من كلامه فى هذا الصدد عند قوله : « وهات الحديث عن مريم ثالثة آلهتكم » (١٩) ، فقد كنت قرأت مرة لقسيس إنجليزى تعليقا على قوله تعالى : « وإذ قال الله ياعيسى بن مريم : أأنت قلت للناس اتخذونى وأمى إلهين من دون الله ؟ » (٢٠) مفاده أن محمدا كان يستقى معرفته عن النصرانية ممن لاعلم لهم بها فجاء كلامه عنها فى القرآن غير صحيح ، مثل قوله إن النصارى كانوا يعبدون مريم . وقد رجعت وقتها (وكان ذلك منذ نحو اثنتى عشرة سنة أو يزيد) إلى أحد معاجم الكتاب المقدس (بالإنجليزية) فوجدت فى مادة «Mary the Virgin : مريم العذراء » أنه كانت هناك طوائف من النصارى تؤله مريم فعلاً . وقد كتبت هذا فى كتابى « المستشرقون والقرآن » ، ثم عدت إليه بمزيد من التفصيل فى كتابى « نظرة إسلامية فى الموسوعة العربية الميسّرة » . فإذا ذكر ابن مسعدة عبادة النصارى لمريم فهو مصيب إذن .

ملاحظة أخرى : إن بعض من ردوا على ابن غرسية قد اعتمدوا الخشونة والعرى فى عباراتهم واتهموه بالأبنة ، بل إن ابن مسعدة دعاه بـ « لقيط غرسية » (٢١) ، بما يفيد أنه يراه مجهول الأب وأنه وُلد لغيّة .

قال أبو يحيى بن مسعدة : « بهذا المحمِّر ، يا مصفّر استه ، حمّرْ وصفِّرْ » (٢٢) . وهى عبارة فيها اتهام له بالأبنة ، فهو لذلك ينصحه أن يزيّن استه ليكون أجذب لرواده وطارقيه . ويقول له أيضا فى أثناء إشارته لمن ذكر أنه يستتر خلف ابن غرسية ويحرّضه على العرب ودينهم دون أن يظهر نفسه ، وتبجح ابن غرسيه بذلك الذى يوسوس له به ذلك الشخص : « كالخصىّ يفخر بمتاع مولاه » (٢٣) . وينادية قائلا « يا است عَيْرٍ يحكّه الثَّفر » (٢٤) . ويبكّته أن استدار إلى العرب الذين ربَّوه وعلموه لغتهم وأدبهم فشتمهم وفرى أديمهم : « هذا جزاؤها فى تدريبك وتعليمك ، وتصريف ألفاتها فى حلقة ميمك . فلا ماء وجهك أبقيت ، ولاحِرْحَ أمك العفلاء أنقيت » (٢٥) . ويستشهد له بهذا البيت :

وقد بزمام بظر أمك واحتفر بأير أبيك الفَحْل كُرّات عاسم (٢٦)

ويقول عن سابور إنه «زنق فقحة هرقلكم » (٢٧) .

ويقلب ابن الدودين البلنسى الصفات الطيبة التى مدح بها ابن غرسية بنى جلدته حين قال إنهم « جُمُح طُمُح » ، جاعلا منها تورية إلى عيوب جنسية قائلا : « جُمُح إلى كل رموح طموح ، يطولُ الشِّبْر ، ويُطيل الشَّبْر ، مُعَلَّف ، مُغَلَّف ، ذى خَلْق مرصوص ، وهامةٍ كالفصوص » ، ثم يعقب على ذلك متهكما به قائلاً : « إياك ولعابك ، أن يمحو كتابك » (٢٨) . وبالمثل يفعل مع وصف ابن غرسية لهم بقوله : « بُصُر صُبُر » و « سُرُج وُهُج » ، فهو يقلب كل ذلك على النحو التالى : « بُصُر بتركيب عُصَب أنابيب السُّرر ، ومنافعها بزعمهم للجسم والبصر ! صُبُر على إيغال الغراميل الطوال » ، و « سُرُج المضاجع ، لايطفأُ وهجانُ ذلك السُّعُر ، إلا بدافق ماء الكَمَر » (٢٩) .

ولاشك أن الذى حدا بهؤلاء الكتاب إلى هذه الخشونة هو الغيظُ المتأججُ فى صدورهمّا لمّا رأوا هذا البشكنسى يسبّ جنسهم ويمسح به الأرض ولايبالى ، والدولة فيما يرون دولتهم

والصولة صولتهم ، وهم لايستطيعون أن يفعلوا له غير الرد شيئا . ثم لاننس أن هذا الأسلوب العارى الخشن كان غير مستنكر فى تلك العصور . ولكن ينبغى ألاَّ يفوتنا فى الوقت ذاته أن رسالة ابن غرسية قد خلت تقريبا من هذا .

ومع ذلك ، فلاجرم أنه لو خلت الردود من هذا العُرْى لكان أفضل ، وبخاصة أنها لاينقصها الحجة القوية فى كثير من الأحيان ، فهى من ثم لن تحتاج إلى أن تغطّى على ضعف منطقها بهذا الأسلوب .

وقد عيّر ابنَ غرسية كلٌّ من أبى يحيى بن مسعدة وابن من الله القروى بأنه فى الوقت الذى يسب فيه العرب ويرميهم بكل نقيصة يلجأ فى التعبير عن أضغانه نحوهم إلى لغتهم ، وكان أحرى به ، كما يقول ابن مسعدة ، أن ينطق « بعجمته ورطانته » وألا يستشهد بأشعارهم (٣٠) . كما يذكّره ابن من اللّه بنعمة العرب عليه ، إذ أنطقوه ، كما يقول ، بعد العجمة وأسلقوه بعد اللكنة (٣١) .

ومن قبل أخذ ابن قتيبة على الشعوبيين أنهم حين يهاجمون

العرب فإنما بلسان العرب ينطقون وبآدابهم يتسلّحون عليهم (٣٢) .

ولاريب فى أن ابن غرسية ، كما تدل على ذلك رسالته وأسلوبها العجيب ، قد أتقن لسان العرب خصومه إتقانا عظيماً . ولا أظنه كان من السهل عليه أن ينبذ هذه الوسيلة ويلتجىء إلى لسان قومه ، الذى لاندرى أكان يتقنه إتقانه للعربية . وحتى لو كان يتقنه (وهو مانستبعده ، إذ لم تكن الآداب اللاتينية فى الأندلس مزدهرة فى ذلك الوقت بحكم سيادة العربية وأهلها وتكلم كل الأندلسيين تقريبا بها) أكان مما يخدم فكرته وغرضه أن يتخذ ذلك اللسان وسيلة لإذاعة رسالته ؟ إن كل أمة تلجأ إلى ترجمة ماتريد أن تدعو الأمم الأخرى إليه إلى لغات هذه الأمم وتتكلف فى ذلك الكثير ، فكيف يُتَصوَّر أن يترك ابن غرسية العربية ، وهى لغة القوم الذين يريدون أن يسدّد إليهم سهمه ، إلى لغة لم يكن أحد من العرب ليبالى بمايُكتب فيها ؟ كذلك لانكران فى موهبة ابن غرسية الأدبية ومقدرته اللغوية التى مكنته أن يؤلف مثل هذه

الرسالة بذلك الأسلوب القوى العجيب . لكن لابد من معرفة أنه حتى اليهود والنصارى فى بلاد الأندلس كانوا يقبلون على تعلم اللغة والأدب العربى ويفتخرون بذلك أيما افتخار . فما بالك بابن غرسيه المسلم أو ، إن أحببت ، الذى يتظاهر بأنه مسلم ؟ ولايكاد أحد يجهل ذلك النص الذى يتحسّر فيه ألفارو القرطبى لانصراف بنى دينه عن اللاتينية وآدابها ومؤلفاتها بوجه عام إلى العربية وتراثها قراءة وكتابة (٣٣) . ثم إن ابن غرسيه كان كاتبا رسميا عند مجاهد العامرى كما نعرف ، فهو أديب عربى إذن . فكيف يترك لغته إلى لغة أخرى ؟ ثم إنه لم يجعل اللغة موضع مقارنة قط فيما جعله من خصال قارن فيها بين العرب والعجم ونصر فيها هؤلاء الآخرين .

الهوامش

١- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٥٧ - ٢٥٨ .

٢- السابق / ٣ / ٢٥٧ / هـ ٠٩ .

٣- وقد وردت فى رسالة أبى العلاء إدريس بن محمد القرطبى فى الرد على ابن غرسية هذه العبارة يصف بها رسالته : « فجاءت فائدة انتجاع الطالب المقيم والمرتحل ، وفائدة أتباع ابن سيدة الناحل وابن غرسية المنتحل » . وهى عبارة ينقصها كذلك الوضوح والتحديد والبرهان . ولذلك نضرب عنها هى أيضا صفحا (انظر محمد بن عبدالملك الأنصارى / الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة / تحقيق محمد بن شريفة / دار الثقافة / بيروت / السفر الأول / القسم الأول / ٢٤٩) . وحتى لو فهمنا أن النحل والانتحال هنا أن ابن سيدة هو الذى كتب الرسالة وانتحلها ابن غرسية فإن الاختلاف الشديد بين أسلوب ابن سيدة والأسلوب الذى فى الرسالة هو أبلغ رد على هذا .

٤- نوادر المخطوطات / ٣ / ٣٠٩ ومابعدها .

٥- السابق / ٣ / ٢٦٠ .

٦- ص / ٢٦٢ .

٧- ص / ٢٩٨ .

٨- ص / ٣٠٢ .

٩- ص / ٣١٠ .

١٠- ص/ ٣٣٠ .

١١- الذخيرة / قسم ٣ / مجلد ٢ / ٧٥٣ .

١٢- السابق / ٣ / ٢ / ٧٥٥ .

١٣- ألف باء / ١ / ٣٥٠ .

١٤- السابق / ١ / ٣٥١ .

١٥- السابق / ١ / ٣٥٣ .

١٦- رواه البخارى ومسلم .

١٧- قال هذا أيضا جولدتسيهر ، الذى رأى أن ذلك الصنيع من ابن غرسية ماهو إلا « حجاب للتمويه » . انظر محمد عبد الله عنان / دول الطوائف / ٢٠٨ .

١٨- انظر تفسير كل من أبى حيان والألوسى عند تناولهما للآية / ١٣ من سورة « الحجرات » .

١٩- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٦٤ .

٢٠- المائدة / ١١٦ .

٢١- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٥٦ .

٢٢- ص / ٢٥٧ .

٢٣- ص / ٢٥٨ . وهذه الصورة موجودة أيضا فى الرد المجهول الصاحب / ص ٢٩٧ .

٢٤- ص / ٢٥٧ .

٢٥- ص / ٢٥٩ .

٢٦- ص / ٢٦٩ .

٢٧- ص / ٢٧٢ .

٢٨- ص / ٣٠٣ .

٢٩- ص / ٣٠٤ .

٣٠- ص / ٢٥٨ .

٣١- ص / ٣١٠ - ٣١١ .

٣٢- ابـن قتيبـة / « كتاب العرب » فى « رسائل البلغاء » لمحمد كرد على / ٣٤٦ .

٣٣- انظـر هـذا النـص فى ترجمة د. حسيـن مؤنـس لكتـاب بالنثيا « تاريخ الفكر الأندلسى » / ٤٨٥ - ٤٨٦ ، وكتـاب د. أحمـد هيكل / الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة / ط ٧ / دار المعارف / ١٩٧٩ م / ٤٠ .

أسلوب الرسالة

والرسالة كلها مسجوعة . وهى فى هذا تجرى على سُنّة كثير من المؤلفات النثرية فى تلك العصور . لكن ينبغى أن نعرف أن نظام السجع فيها يكاد أن يكون فريدا ، فابن غرسية يجعله سجعتين سجعتين ، ولايزيدهما إلى ثلاث إلا قليلا ، وأغلب هذا السجع يقع داخل الجملة الواحدة بل داخل الجزء من الجملة ، فتأتى الجملة الواحدة يتجاوب الرنين بين جنباتها . مثال ذلك قوله فى أول الرسالة : « سلام عليك ذا الرويّ المرويّ ، الموقوف قريضه على حَلَلة بجّانة أرش اليمن بزهيد الثمن . كأن مافى الأرض إنسان إلا من غسّان أو من آل ذى حسّان . وإن كان القوم أقنوك ، وعن العالم أغنوك ، على حسب المذكور ، فما هذا الإعمال للكُور ، وترك الوكور ؟ وقلّ ما تأخذ الشَّعَرة (١) فى الرحيل ، إلا عن الربع المُحيل . ولو أن القوم خلطوك فى الآل لما أحوجك إلى الخبط فى الآل . مَهْ مَهْ . من أحوجك إلى ركوب المهمه ، وثقِف . ووذك لاتقف على من اضطرك

إلى الإيغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المُغَال (٢) ، وعوّضك من الأندية بجوب الأودية ، ومن المآلف بقطع المتالف ، وحملك على مخالفة الحَصَان ، ومحالفة الحِصان ، ووكّلك بمسحِ الأرض ذات الطول والعرض . فإذا يمّمت تبالة تتباله ، وصرت ضغثا على إبّالة ... » (٣) .

وهو كما ترى سجع متدفق لايشعر معه القارىء أن صاحبه قد تكلف فيه أى تكلّف ، رغم أنه قد أخذ نفسه ، إلى جانب السجع ، بقيد المجانسة بين الألفاظ المسجوعة وغير المسجوعة : كاليَمَن والثَّمَن ، وإنسان وغسّان وحسّان ، وأقنُوك وأغنوك ، والمذكور والكور والوكور ... إلخ .

وقد لاحظت أن ابن غرسية قد استغرق فى سجعه أو كاد كل حروف الهجاء ، مع التنويع فيها والتقليب لها على مدى الرسالة كلها ، فهو يسجع بحرف ثم يتركه ثم بعد ذلك يعود إليه . وهكذا دواليك .

وقد جرّ السجع عند ابن غرسية إلى حذف الياء من « المُغال » فى قوله : « وودّك لاتقف على من اضطرك إلى

الإيغال ، وباعك بيع المسامح بك لا المغال » (٤) . وقد حدث ذلك فى القرآن ، كما فى قوله تعالى : « الكبير المتعال » (٥) و « ياعباد فاتقون » (٦) . كما تنكب ابن غرسية بسبب السجعة أيضا « واو الجماعة » مرة فى كلامه عن جماعة الذكور إلى « نون الإناث » ، وذلك فى العبارة التالية : « أَحَلَّتْهم سيوفه سطة الأرضين ، فما قنعوا بذلك ولارضين ، وحتى دوخوا المشارق والمغارب ، واستوطنوا من الأرض الذروة والغارب » (٧) . ولكن ليس هناك إلا هذا المثالان .

وكأن الموسيقى الناشئة عن السجع لاتكفى فنراه يستشهد بين الحين والآخر بشىء من الشعر . وهو فى هذا الاستشهاد ينوّع : فتارة يجعل الاستشهادات متقاربة ، وتارة يباعد بينها . وأحيانا يجعل الاستشهاد بيتا واحداً ، وهو الغالب ، وفى أحيان أخرى يجعله بيتين . على أنه فى ختام الرسالة قد استشهد بسبعة أبيات من شعر المعرى دفعة واحدة .

وهو فى استشهاداته لايقول : « قال الشاعر » أو « كما قال فلان » ، وإنما يترك الشعر يلتحم بكلامه كأنهما خرط

واحد . ويساعد على هذا الإحساس غزارة الموسيقى التى وفرها لنثره ، كما بينا، سجعاً وجناساً دراكا .

على أن هنـاك فـى استشهاداته بيتاً لم ينسبه كالعادة لقائله ، وإنما نسبه فى الهامش المرحوم عبدالسلام هارون إلى أمية بن أبى الصلت (٨) . والبيت منسوب فى « طبقات الشعراء » لأبى الصلت بن أبى ربيعة (أبى أمية وليس لأمية نفسه) ، ونصه :

تلـك المكـارم لاقعبـان مـن لبـن شيبـا بمـاء، فعـادا بَعْـدُ أبـوالا (٩)

وقد ورد هناك ضمن أبيات سبعة يمدح فيها الفرس لقتلهم الأحباش وإخراجهم من اليمن . وقد سبق (فى فصل كتبته عن « طبقات (فحول) الشعراء » لابن سلام ، من كتابى « من ذخائر المكتبة العربية ») أن أبديت شكى واستغرابى فى أن يكون أبو الصلت قد مدح بهذا البيت الفرس وحقر فيه قومه العرب كل هذا التحقير ، وقلت مانصه : « أقال أبو الصلت هذا البيت الذى يسىء إلى قومه العـرب حقـا ؟ إن الرجل يمدح الفرس لمساعدتهم قومه ، أى أن حبه لقومه هو الذى دفع به إلى

حب الفرس والإشادة بهم . فلماذا انقلب يهجو العرب إذن ؟ إن المنطقى أن يهجو الأحباش لا العرب . وإننى لأشم فى البيت شبها من مشابه الشعر الشعوبى . ويزيد استغرابى أن مساعدة الفرس إنما كانت لأهل اليمن بقيادة سيف بن ذى يزن . وأهل اليمن أهل حضارة ومدن وزراعة وبيوت مستقرة . فما دخل عرب البوادى الذين كانوا يرعون الإبل ويقدمون لضيوفهم الذين يمرون بهم عابرين الصحراء اللبن ، مما يسخر به الشاعر ويحقره ؟ » (١٠) .

وظَلّ البيت يجول فى نفسى إلى أن وجدته ، وأنا أدرس ديوان النابغة الجعدى ، ضمن قصيدة لهذا الشاعر ، وهى القصيدة التى تبتدىء فى الديوان بقوله :

إمّا تَرَىْ ظُلَلَ الأيام قد حسرت عنىّ وشمّرت ذيلا كان ذيّالا (١١)

وقد جاء البيت فى آخرها . وورد فى شرحه أن ابن الحيا كان قد فخر على النابغة بأن قومه قد قدموا الماء واللبن لرجل من جعدة كان العطش والإرهاق قد برّحا به وكادت نفسه أن تتلف، فعاش . فأنشأ النابغة هذه القصيدة يعدّد فيها مفاخر قومه

قائلا : هذه هى المكارم الحقيقية لاشربة لبن قد شيب بالماء فأصبح طعمه كطعم البول .

وبالمناسبة ، فهناك اختلاط آخر فى نسبة إحدى القصائد ما بين النابغة الجعدى وأمية بن أبى الصلت أيضا ، وكأن النابغة مبتلى بالأب وابنه معاً . وهى الأبيات التى مطلعها :

الحمد لله لاشريك له من لم يقلها فنفسه ظلما (١٢)

وهى أبيات لايطمئن ضميرى أبداً إلى نسبتها إلى أمية ، لأن معظم عباراتها ومعانيها وروحها مأخوذ من القرآن أخذا ومصوغة شعراً ، فكيف يُعكَس الأمر وتُعْزَى إلى أمية ويبدو الأمر بذلك وكأن أمية سابق فى كلامه وأفكاره وصوره على القرآن الكريم ؟ إن ذلك لو كان صحيحا لاتخذه الكفار سلاحا يشككون به فى صدق الرسول عليه السلام ويؤلبون الناس عليه محدثين فتنة عظيمة .

ولايقف استعانة ابن غرسية بالشعر عند الاستشهاد به ، بل يضيف إلى ذلك تضمين كلامه بعض التعبيرات المأخوذة من القصائد : بنصها أو مع بعض التحوير ، مثل : « وقلّ

ماتأخذ الشَّعَرة فى الرحيل ، إلا عن الربع المحيل » (١٣) ، و « قُرعت الظنابيب » (١٤) ، و « البتّ المقيّظ المشتّ » (١٥) ، « فأصبح بعد جرّ الذيول ، مدوساً بأخفاف الفيول » (١٦) ، و « المسك بعض دم الغزال » (١٧).

وهو يفعل مثل ذلك مع العبارات القرآنية ، كما فى الأمثلة التالية : « غنوا بالإستبرق والسندس » (١٨) ، « وابتغ فى الأرض نفقا ، وفى السماء مرتقى » (١٩)، « بطشنا الشديد » (٢٠)، « فمن أبصر أقصر » (٢١) .

وإلى جانب هذا فإن ابن غرسية قد ضمن كلامه مثلين على الأقل ، وهما : « فإذا يمّمت تبالةْ تتباله ، وصرت ضغثا على إبّالة » (٢٢) ، وقوله : لايُقَعْقَع لهم بالشنان » (٢٣) .

ومميا يتميز به أسلوب ابن غرسية أيضا فى الرسالة مايقابلنا بين الحين والآخر مما يسمونه فى البلاغة « حسن تقسيم » ، من مثل قوله : « اضطركم إلى سكنى الحجاز ، وألجأكم إلى ذات المجاز » (٢٤) ، و « لاحَفَزَةُ

عَكَـر ، ولاحَفَرةُ أكَرَ » (٢٥) ، و « لاحـرّاس مُسُـل ، ولاغـّراس فُسُـل » (٢٦) ، و « فـى الأنسـاب الصميمـة ، والأحساب العميمة » (٢٧) ، و « شهمنا الرئيس ، وسهمنا النفيس . قَيْل الأُمَم، وسَيْل الأَمَم » (٢٨) . فالرسالة من ناحية الرنين والتجاوب الموسيقى قد بلغت ذروة عالية حقا . وهى فى تدفقها وتتابع السجع فيها سجعتين سجعتين فى الغالب ، كما قلت ، تشبه رشقاً من السهام متوالياً لاينقطع . والواقع أنها فى هذا تتفوق على الردود التى درسناها معها هنا ، وإن كانت هذه تتفوق عليهـا بعنف الحماسة وإيلام العبارة ، وكذلك بصحة المنطق فى معظم الأحيان .

وجدير بالملاحظة أن معظم « الصفات » التى نعت بها ابن غرسيـة الأعاجـم جـاءت على صيغة جمع التكسير « فُعُل » : « مُجُـد ، نُجـُد ، قـُـدُم (٢٩) ، رُزُن ، رُصُـن ، بُصـُر ، صُبـُر (٣٠) ، شُمُخ ، بُذُخ ، وُضُح ، رُجُح (٣١) ، نُدُس ، بُسُل (٣٢) ، عُرُق ، غُرُق ، حُلُم ، عُلُم (٣٣) » . وأحيانا مايستخدم فى وصفهم صيغاً أخرى من بينها صيغة « فَعَلة » ،

وإن كانت هذه الصيغة الأخيرة تحتل المرتبة الأولى فى نعت العرب : « حَلَلَـة ، شَعَرة (٣٤) ، عَبَدة ، حَفَـدة (٣٥) ، حَفَـزة ، حَفَـرة (٣٦) ، كَفَـرة لاشكـرة (٣٧) » ، بينما قلّت فيه صيغة « فُعُل » .

ومـن صيـغ جمـع الأسماء التى تكثر فى الرسالة صيغة « فُعُـول » : « الوكـور (٣٨) ، والدروع ، والسّروح ، والصّروح ، والقرود ، والبرُود (٣٩) ، والعُرود ، والقُيُول ، والخيول ، والفُيُول ، والنجوم ، والرُّجوم (٤٠) ، والسيوف ، والشُّنـوف ، والسُّـروج ، والحصـون (٤١) ، والمُكـون ، والوكـون (٤٢) ، والأصول ، والفـروع (٤٣) ، والعلوم (٤٤) ، والذنوب (٤٥) » . وقد تنبهت إلى أن هذه الصيغة أخذت تقلّ فى نهاية الرسالة . وهذه مجرد ملاحظة لاغير .

ومادمنا بسبيل الكلام عن الصيغ فينبغى أن نذكر هنا أن ابن غرسية قد استخدم فى جملة من جمله كلمـة « صُقـورة » بـدل « صقـور » ، و « شقورة » بدل « شُقْرة » (٤٦) ، وذلك للسجعة كما هو واضح .

والغريب فى الرسالة يكاد يكون معدوماً ، فهى من هذا الجانب أسهل كثيرا من معظم الرُّدود عليها .

وقد فرض أسلوب ابن غرسية نفسه على أساليب من ردّوا عليه (٤٧) ، فجهدوا أن يعتمدوا طريقة فى السجع والجناس وحسن التقسيم تشبه طريقته . وتردّدَتْ مثلا فى كلام بعضهم صيغتا « فَعَلة » و « فُعُل » بشكل ملحوظ . وكثر عندهم الاستشهاد بالشعر وتضمين الآيات والأمثال . بل إن بعضهم قد أخذ من ابن غرسية بعض ألفاظه وعباراته وأدخلها فى ردّه ، مثل « الغثيث (عند ابن غرسية : « الغثّ ») ، وذى الرويّ المرويّ ، وتبالة ... تبالَة ، والضغث والإبّالة ، وسارة ربة الإياة ... إلخ » فى رسالة أبى يحيى ، و « مُجُد نُجُد ، والحى اللقاح (عند ابن غرسية : « مُلَّكُ لَقَاحٍ ») ، ودرّ اللقاح ، ورُجُح ... » عند صاحب الرد المجهول ، و « ثقفت ووقفت ، وصَفْعا وسَفْعا ، ومجالسهم السروج (عند ابن غرسية : « شرهوا ... بركوب السروج ») ، وصُبُر » عند ابن الدودين البلنسى ... وهكذا .

على أن بين هذه الردود بعضها وبعض تجاوبا فى اللفظ والأفكار أحيانا . ومن يرجع إليها يجد مصداق ذلك . فإلى جانب السمات المشتركة بينها جميعاً أو بين بعضها مما سبق ذكره نستطيع أن نذكر على سبيل المثال الألفاظ والعبارات والأفكار التالية : فأبو يحيى بن مسعدة بعد أن يردّ على ادعاء ابن غرسية أن مفاتيح الكعبة قد باعها أبوغُبْشان لقصى بن كلاب يعود فيسلّم جدلا بأن ذلك قد حدث وأن أبا غشان قد فرّط فعلاً فى شىء مقدس لقاء بعض المال ، ليسأله « أين فِعْل هذا ، من حواريكم يهوذا ... إذ سام بإلهكم عيسى على دعواكم سوم العبيد ، وباعه بثلاثين درهما من اليهود ؟ » (٤٨) ، وابن الدودين البلنسى يقول أيضا فى ذلك : « وهبها قضية سفيهنا الغوىّ ، أين تقع فى قضية إمامكم يهوذا الحوارىّ ، إذ باع نبيه روح القدس ، من أعوانه بالأفلس ؟ » (٤٩) . ويقول صاحب الرسالة الثانية المجهول دفاعا عن عدم بناء العرب القصور والأبنية : « لم يتخذوا القصور وكورا ، ولكن مذاكى ذكورا . بنيتم بالشيد

وبنينا ... ، وأحدقتم بالحيطان ، وأحدقنا بعوالى المُرّان . وألفتم الأبنية والأندية ، وجبنا فى طلب العزّ المهامه والأودية . وأذلّتُم الدياييج والمرمر ، وذلّلنا العناجيج والضُّمَّر . جَرَرَةٌ عوال ، وبَذَلة نوال » (٥٠) ، ونجد عند ابن الدودين نفس الفكرة وبعض الألفاظ أيضا : « عُنُوا بمدّ أطناب الأبنية ، عزّة وأنفة عن تشييد الأبنية . محالفى الصحاصح والبيد ، فعل الأساود والأسود . قصورهم المناهل ، ومعاقلهم الذاويل » (٥١) . ويصف ابن مسعدة الروم بأنهم « سواس الخنازير » (٥٢) ، ويقول ابن من الله القروى إنهم « رعاة الخنازير » (٥٣) . ويخاطب أبو يحيى بن مسعدة ابن غرسية قائلا : « إياك أعنى أبا عامر ... » (٥٤) ، ويقول له أيضا ابن عباس : « إياك أعنى واسمعى ياجارة » (٥٥) . ويقول له الأول : « إياك أعنى أبا عامر ، ولا أقول « خامرى أم عامر » (٥٦) ، ليقول الثانى : « خامر أباعامر ، كخليلتك أم عامر » (٥٧). ويذكر ابن من الله القروى فى معارف العرب « العيافة ، والزجر والقيافة ، والأيامن والأشائم ، والتمائم

والرتائـم » (٥٨) ، فيوردها ابن عباس فى قوله : « وفيهم العيافة والقيافة ، ... والرقـى والتمائم ، والـزجـر بالأيامن والأشـائم » (٥٩) ... وهكذا . ومن المرجع أن كلَّ تالٍ من أصحاب الردود هؤلاء كان يقرأ ماحبّره السابقون عليه . ومن هنا كان هذا التشابه فى الأفكار والعبارات .

ويلاحظ فى بعض هذه الردود أن أصحابها قد يأتون إلى المفاخر التى نسبها ابن غرسية لقومـه فيقلبونهـا عليهم هجاءً وثلبا ، فإذا قال ابن غرسيه إنهم « بُصُر صُبُر » قال ابن مسعدة « بُصُر بأوقات السمر ، وأفول القمر ، ودبيب الضّرّاء والكَمَر (٦٠) ، صُبُر على الذَّفَر والقَـذَر وذَفـر الغَمـَر وأُطـَر الكَمَر » (٦١) ، وإذا قال إنهم « جررة أذيال » رد عليه بأنهم فعلا « جررة أذيال ، لكن على دمالٍ وأبوالٍ » (٦٢) ، وإذا قـال إنهـم « وُضُح رُجُح » قلبها عليه ابن الدودين قائـلا : « رُجُح الأكفال ، وُضُحٌ كذوات الحجال » (٦٣) . كما قلب صفتى العلـم والحلـم فى قـول ابـن غرسية : « عُلُم حُلُم » إلى « عُلُم بالتداوى من القَرَم ، ومنافع القلم ، حُلُم عن كل

مجاوز الحُلُم » (٦٤) . وكذلك قلب « بُصَر صُبُر » إلى « بُصُر بتركيب عُصَب أنابيب السُّرر ، ومنافعها بزعمهم للجسم والبصر ، صُبُر على إيغال الغراميل الطوال » (٦٥) ... وهكذا . ومعظمه كما ترى إشارات ومعانٍ جنسية واتهام لقوم ابن غرسية بالأبنة .

الهوامش

١- أى الشعراء .

٢- أى المُغَالِى .

٣- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٤٦ .

٤- ص / ٢٤٦ .

٥- الرعد / ٩ .

٦- الزُّمَر / ١٦ .

٧- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٤٩ . وقد يقال إن « نون النسوة » هنا تعود على السيوف . ولكن ينبغى ألا يفوتنا أن الضمائر فى العبارة وقبلها وبعدها سترتبك فى هذه الحالة . وهذا الارتباك سيكون حينئذ دليلاً على ماجرّت السجعة الكاتب إليه . وعلى أية حال فقد استعمل أبو يحيى بن مسعدة فى كلامه هذه العبارة بما لاتحتمل معه إلا أن تكون « نون النسوة » عائدة على جماعة الذكور الذين يتحدث عنهم ابن غرسية ، وهم قومه . انظر ص ٢٧١ / سطر ٩ .

٨- انظر هـ ٢ / ص ٢٥١ .

٩- طبقات (فحول) الشعراء / تحقيق محمود شاكر / مطبعة المدنى / القاهرة / ١ / ٢٦٢ . وكذلك هو فى « الشعر والشعراء » لابن قتيبة / تحقيق أحمد شاكر / دار المعارف / ١ / ٤٦١ - ٤٦٢ . أمّا الأستاذ هارون فقد أحال إلى « الشعراء (٢) / ٤٣٣ » . ولا أدرى أى شىء هذا المصدر ، ولعله أحد المصدرين اللذين هنا ، ولكنه سها فنسب البيت إلى أمية بدلا من أبيه .

١٠- د. إبراهيم عوض / من ذخائر المكتبة العربية / الطائف / ١٤١٣هـ -

١٩٩١ م / ٣٧ .

١١- انظر القصيدة فى « شعر النابغة الجعدى » / تحقيق عبدالعزيز رباح/ط ١/ المكتب الإسلامى/ دمشق / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م / ١٠٠ - ١٢٠ .

١٢- انظر تخريج القصيدة فى المصدر السابق / ١٣٢ . وانظر كذلك « طبقات الشعراء » / ١ / ١٢٧ - ١٢٨ .

١٣- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٤٦ .

١٤- ص / ٢٤٨ .

١٥- ص / ٢٥٠ .

١٦- ص / ٢٥٠ - ٢٥١ .

١٧- ص / ٢٥٣ .

١٨- ص / ٢٥٠ .

١٩- ص / ٢٥٣ .

٢٠- ص / ٢٥٣ .

٢١- ص / ٢٥٤ .

٢٢- ص / ٢٤٦ .

٢٣- ص / ٢٥٠ .

٢٤- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٤٨ .

٢٥- ص / ٢٤٩ .

٢٦- ص / ٢٥٠ .

٢٧- ص / ٢٥١ .

٢٨- ص / ٢٥٣ .

٢٩- ص / ٢٤٧ .

٣٠- ص / ٢٤٨ .

٣١- ص / ٢٤٩ .

٣٢- ص / ٢٥٠ .

٣٣- ص / ٢٥١ .

٣٤- ص / ٢٤٦ .

٣٥- ص / ٢٤٨ .

٣٦- ص / ٢٤٩ .

٣٧- ص / ٢٥٠ .

٣٨- ص / ٢٤٦ .

٣٩- ص / ٢٤٧ .

٤٠- ص / ٢٤٨ .

٤١- ص / ٢٤٩ .

٤٢- ص / ٢٥٠ . والمُكُون : بيض الضبّ .

٤٣- ص / ٢٥١ .

٤٤- ص / ٢٥٢ .

٤٥- ص / ٢٥٤ .

٤٦- ص / ٢٤٧ . وبالمناسبة ، فقد وردت كلمة « صُقُورة » عند ابن قيس الرقيات فى بيته التالى :

يخطفْـــــنَ أنفاســـاً كمـــــا خَطِفـــَتْ أرانبهـــا الصُّقـــُورَهْ

(ديوان عبيدالله بن قيس الرقيات / تحقيق د. محمد يوسف نجم / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م / ٤٧) .

٤٧- إلا البلوى . ويبدو أن ذلك بسبب المدى الزمنى الطويل الذى يفصل بينهما ، إذ هو من أهل القرن السادس .

٤٨- نوادر المخطوطات / ٣ / ٢٧٠ .

٤٩- نفسه / ٣ / ٣٠٧ .

٥٠- ص / ٢٩٦ .

٥١- ص / ٣٠٨ .

٥٢- ص / ٢٧١ .

٥٣- ص / ٣١٢ .

٥٤- ص / ٢٥٦ .

٥٥- الذخيرة / ٣ / ٢ / ٢٤٧ .

٥٦- نوادر /٣ / ٢٥٧ .

٥٧- ذخيرة / ٣ / ٢ / ٧٤٨ .

٥٨- نوادر / ٣ / ٣٢٢ .

٥٩- ذخيرة / ٣ / ٧٥١ .

٦٠- أى الخداع والمخاتلة .

٦١- ص / ٢٨١ .

٦٢- أى على النجاسة والقاذورات / السادس / ص ٢٨١ .

٦٣- ص / ٣٠٣ .

٦٤- ص / ٣٠٣ .

٦٥- ص / ٣٠٤ .

ردود أخرى على رسالة ابن غرسية

هذا ، وقد ذكر البلوى وجولدتسيهر وعبدالسلام هارون ود. إحسان عباس بعض الردود الأخرى على رسالة ابن غرسية ، وهى : رد ابن مروان عبد الملك بن محمد الأوسى ، ورد أبى عبد الله محمد بن أبى الخصال الغافقى المتوفى سنة ٥٤٠ هـ ، ورد أبى محمد عبدالمنعم بن محمد بن عبدالرحيم الخزرجى الغرناطى المتوفى عام ٥٩٧ هـ . ورد عبد الحق بن خلف بن مفرح ، وعبد الملك بن محمد الأنصارى (١) .

ويمكن أن أضيف هنا ردّ محمد بن على بن عبد ربه التجيبى المتوفى سنة ٦٠٢ هـ . وقد ذكره لسان الدين بن الخطيب فى « الإحاطة » ، ووصفه بأنه « رد جيد » (٢) ، وكذلك رسالة أبى العلاء إدريس بن محمد القرطبى المسمّاة « تفضيل العرب وتمييز النبع من الغَرَب » . وقد ضمّن صاحب « كتاب الذيل والتكملة » محمد بن عبدالملك الأنصارى كتابه هذا فصلاً من تلك الرسالة (٣) .

الهوامش

١- البلوى / ألف باء / ١ / ٣٥٠ - ٣٥١ ، ونوادر المخطوطات / ٣ / ٢٣٩ - ٢٤٠ ، ود. إحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين / ١٧٢ .

٢- مجلد ٣ / ص ٢٢٩ .

٣- وذلك فى القسم الأول من السفر الأول من هذا الكتاب .

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة خاطب بها أبو عامر بن غرسية أبا عبد الله بن الحداد[1] ٢٦/أ
يعاتبه فيها ويفضل العجم على العرب ؛ وكتب بها من لارة

سلامٌ عليك ذا الروِيّة، المروِيّة، الموقوفَ قريضُه على حلّة بمّانة[2] أبي اليمَن[3]، بزَهيد الثَّمن، كأنْ ما في الأرض إنسانٌ، إلاّ من غسّان، أو من آل ذي حسّان. وإن كان القوم أقنَوْك، وعن العالَم أغنَوك، على حسب المذكور، فما هذا الإعمال للمكُور، وتَركُ الوُكور. وقلّ ما تأخذ الشَّعرة[4] في ٢٦/ب الرَّحيل، إلاّ عن الرِّيح المُحيل! ولو أنّ القومَ خَلطوك بالآل، لَمَا أحوجك إلى التَخبّط في الآل[5]. مَنّه، مَن أحوجَكَ إلى ركوب المهمه، وتقَف[6]، وودّك لا تقِف، كلّى من اضطرّك إلى الإيغال، وباعك بَيعَ المُسامِح بك لا المُغال، وعوّضك من الأندية[7]، بجوب الأودية، ومن المآلِف، بقطع المتالف، وحملك على مخالفة الخُصان، ومحالفة الحِصان، ووكّلك بمَسْح الأرض، ذاتِ الطُّول والعرض، فإذا يمّمت تبالة، بقبالَه[8]، وصرت ضِغثاً على إبّالة، تتعلّل بالبين، ضِنّا بالعاتق الشّمين.

(١) كذا في نسخة الأصل . والصواب أنه « أبو جعفر بن الخراز » . انظر ما سبق في ص ٢٣٤ — ٢٣٦ من التقديم .

(٢) حلة: جمع حال بمعنى نازل في المكان. وبمانة ، قال ياقوت : مدينة بالأندلس من أعمال كورة البيرة ، خربت ، وقد انتقل أهلها إلى المرية ، وبينها وبين المرية فرسخان .

(٣) أصل معنى الأرض العيب في اللغة .

(٤) جمع شاعر . ولابن غرسية ولوع بهذه الصيغة من الجموع .

(٥) الآل الأولى بمعنى الأهل ، وهذه بمعنى السراب .

(٦) يقال تقف ، إذا صار حاذقا فطنا . انظر ما سيأتي في ٤٤ ب .

(٧) الأندية : جمع النادي ، وهو مجلس القوم يجتمعون فيه. المريدة: من قطع الأندية.

(٨) تبالة : بلدة مشهورة من أرض تهامة في طريق اليمن . وتباله : تصنع البلاهة.

أحْسَبك[١] ازْرَيت، وبهذا الجيل البَجِيل ازدريت، وما دريت، أنهم الشُّهب الشُّهب، ليسوا بعُرْب، ذَوِى أينُق جُرب، أساورة، أكاسرة، نُجُد، نُجُد، بُهَم[٢]، لا رُعاة شويهات ولا بَهَم[٣]، شُغِلوا بالماذىّ والمُرّان، عن رَعى البُمران، وبحَلْب اللِبز، عن حاب المَعْز، جبابرة، قياصرة، ذوو المغافر والدُّروع، التُّنفيس عن رَوع المَروع، حماة الشُّروح، حماة الشُّروح[٤]، صُقورة، غلبت عليهم شُقورة[٥]، وشقورة الخِرْصان، لكنّهم خَطَبة بالخِرصان[٦].

ماضرّهم أنْ شَهِدوا بجادا[٧] أو كافحوا يومَ الوغى الأندادا

ألاَّ يكون لونُهم سوادا

أرومة رُومية، وجُرثومة أصفرية[٨].

لَنَتْهُم ذو الأحساب والمجد والعُلى من الشُّهب لا راعُوغضاً وأفانِ[٩]

من القِدَم، للأس الأدم، لم تَعرق فيهم الأقباط، ولا الأنباط، حسبٌ حرىّ، ونسبٌ سرىّ، أمُّكم لأمِّنا كانت أمَة، إنْ تُنكروا ذلك تُلفوا ظالمة، ولاتهابُل[١٠]، فى الثُّكايل، فما سُسنا قطُّ قُروداً، ولا حُكنا بُرُوداً[١١]،

---

(١) فى الأصل: «أحسبك»، صوابه فى المريدة.

(٢) بضم ففتح، جمع بهمة بالضم، وهو الفارس لا يدرى من أين يؤتى، لشدة بأسه.

(٣) البهم، بالتحريك، وبالفتح أيضاً: جمع بهمة، وهى الصغير من أولاد الغنم.

(٤) الشروح: جمع سرح، وهو المال يسام فى المرعى. والصروح: القصور.

(٥) عنى بالشقورة الشقرة، وهى الحمرة. أى حمرتهم كحمرة الأسنة تطوها الدماء.

(٦) الخرصان: جمع خرص، وهو سنان الرمح، وهو الرمح أيضاً. عنى أنهم يخطبون النساء وينكحونهن بالحروب. ومثله قول الفرزدق فى ديوانه ٧٣٧:

وبنت كرام قد نكحتُ ولم يكن لها خاطب إلا السنان وعامله

(٧) الجاد: مصدر ماجده، إذا عارضه بالمجد.

(٨) يقال للروم بنو الأصفر. انظر نهاية الأرب ٢: ٣٢٢. وقد أورد ابن خلكان فى ترجمة ياقوت بن عبدالله الرومى تعليلا خرافيا لتسمية الروم ببنى الأصفر.

(٩) الأفانى: جمع أفنية، وهو ما يسمى «عنب الثلج».

(١٠) هال الدقيق ونحوه: صبه من غير كيل.

(١١) الحوك: النسج. والبرود: جمع برد، وهو ثوب فيه خطوط.

ولا لُكْنا عُرودا[١] ، فلا تهاجُر ، بنى هاجَر ، أنتم أرقّاؤنا وعَبَدتُنا ، وعُتقاؤنا وحَفَدتنا[٢] ، منّنا عليكم بالعِتق ، وأخرجنا كم من رِبَق الرِّق[٣] ، وألحفنا كم بالأحرار ، فبَطِرتُم النِّعمة فصَقعناكم صَقعا ، يشارك سَفْعا[٤] اضطرّكم إلى سُكنَى الحِجاز ، وألجأكم إلى ذات المجاز . رُزُنٌ رُصُن .

جالَ ذى الأرض كانوا فى الحياة وهمْ بعد الممات جمال الكُتْب والسِّيَر[٥]

إذا قامت الحربُ على ساق ، وأخذَتْ فى اتِّساق ، وقُرعت الظَّنابيب ، وأُشرِعت الأنابيب ، وقَلَصت الشِّفاه ، وفغر الهِدانُ فاه[٦] ، وولّى قفاه ، ألفيتَهم ذَعَرَة النَّاس[٧] ، عند احمرار الباس ، الطَّعنُ بالأسَل ، أحلى عندهم من العَسَل .

مُستسلِمين إلى الحُتوف كأنما بينَ الحتوف وبينهم أرحامُ[٨]

من أمنيّاتهم ، حُلولُ مِيتاتهم ، لهم على القُدْمة اليدان[٩] ، على التَّنانى والتَّدان .

مِن الأُلَى غيَّرَ زجرِ الخيل ما عَرَفوا إذ تعرِفُ العُربُ زَجْرَ الشَّاء والبَكَرِ[١٠]

بُصُر ، صُبُر ، تزدان بهم المحافل ، والجحافل ، فُيول على خيول ، كأنها فيول ، كواكب ، للواكب ، نجوم ، الرُّجوم ، من المعجَم ، ضَراغمة الأجَم ، بنو غاب ،

---

(١) اللوك : المضغ . والعرود : جمع عرد وهو الشديد الصلب من كل شىء . انظر هذه الكناية فى ١٤٤ من الأصل .

(٢) الحفدة : الأعوان والخدمة ، واحدهم حافد .

(٣) إشارة إلى أن هاجر كانت جارية سارة ثم عتقت وتزوجها إبراهيم .

(٤) السفع : اللطم .

(٥) البيت لأبى العلاء المعرى . شروح سقط الزند ١٤١ .

(٦) الهدان ، بالكسر : الوخم الثقيل فى الحرب

(٧) ذعرة : جمع ذاعر ، وهو الذى يذعر القوم ، أى يخضهم ويخيفهم .

(٨) البيت لأبى تمام فى ديوانه ص ٢٨١ .

(٩) القدمة : الاسم من الإقدام . قال :

تراه على الخيل ذا قدمة إذا سربل الدم أكفاها

(١٠) لأبى العلاء المعرى . شروح سقط الزند ١٤٠ . وقد غير إنشاد البيت ليقاوق نم الكلام . وإنما أوله : « يا ابن الألى » ، والبكر : القطعة من الإبل ما بين الخمسين إلى المائة .

المُنتَقَمُون من كلّ عاب، لم تلدْهم صواحبُ الرّايات[١]، بل تبجّحت عليهم سارَة الجمال ربّة الإباة[٢]، شُمخ، بُذخ، برزة أقيال، جررةُ أذيال. بخ بخ، أحلّتهم سيوفُهم سِطَة الأرَضين، فاقتنوا بذلك ولاءَ ضين، حتّى دوّخوا المشارق والمغارب، واستوطنوا من المجد الذّروة والغارب.

بضربٍ يُزيل الهامَ عن سَكِناتِه ... وطَعْنٍ كتَشهاق الغَمَا هَمّ بالشَّهْقِ[٣]

شرِهُوا برنّات السُّيوف، لا برنّات الشُّنوف، وبركوب السُّروج، عن الكاب والفَرُّوج، وبالنَّفير، عن النَّقير[٤]، وبالجنائب، عن الحبائب، وباتّخاب عن اتّخاب[٥]. وبالشليل، عن السليل[٦] وبالأمر والذّمر[٧]، عن معاقرة الخمر والزّمر، وباللّقيان، عن العِقيان[٨]، وعن قُنيان القيان، طِيّاتهم، خَطّياتهم[٩]، وغلّاتهم، آلاتهم، وحصونهم، حُصُنهم، أقيال، آباؤهم من بين الأنام أقتال[١٠]

٢٧ ب

أولئك قومي إن بنَوا شَيَّدوا البُنَى ... وإن حاربوا جَدُّوا وإن عقَدوا شدُّوا

وُضّح، رُجُح، لا حَفَزة عَكَر[١١]، ولا حَفَرة أُكَر[١٢]، ملوكٌ جِلّة، لا مُحرِقو

---

(١) كانت البغايا فى الجاهلية يخطن على بيوتهن رايات ليعرفن بها. تفسير الطبرى (١٨: ٥٧).

(٢) سارة: زوج إبراهيم. وكان اسمها «سارای» ثم غير إلى «سارة» ومعناه رئيسة. انظر سفر التكوين أصحاح ١٧ — ١٨ وهى بالراء المخففة. ولا عبرة بما ورد فى اللسان (هجر، سقم) من ضبطها بالراء المشددة. والإباة، أصلها ضوء الشمس وحسنها. وفى فتح البارى (٦: ٢٧٩) أن يوسف أعطى شطر الحسن، وسارة شطره الآخر.

(٣) البيت لأبى الطمحان حنظلة بن شرقى. اللسان (سكن، عنا).

(٤) النفير: القوم ينفرون للقتال. والنقير: النكتة فى ظهر النواة.

(٥) الحب، بالفتح: مصدر خب خباً، وهو ضرب من الدهو. والحب، بالكسر: الحداع.

(٦) الشليل: الدرع. والسليل: سنام البعير.

(٧) الذمر: الحض والحث.

(٨) اللقيان: لقاء الأبطال. والعقيان: الذهب.

(٩) الطية: الحاجة والوطر. والخطيات: الرماح المجتلبة من الخط بالبحرين.

(١٠) جمع قتل بالكسر، وهو المثل والقرن، وللقاتل.

(١١) حفزة: جمع حافز، والمراد به السائق. والعكر، سبق تفسيره.

(١٢) الأكر: الحفر فى الأرض. جمع أكرة.

حلّة ، نُدُس ، غَنُوا بالإستبرق والسُّندس ، عن البَتّ ، المَنيط المشتّ ، المجموع من الدُّمَيْجات الستّ[١] . بُسُل ، لا حُرّاس مُسُل[٢] ، ولا غُرّاس فُسُل ، مُلّاك لَقَاح[٣] ، ليس منهم فى وِردٍ ولا صدَرٍ شُرّابُ دَرّ اللِّقاح ، بل شَرابهم النَّبيذ ، وطعامهم الخَبيذ ، لا زهيد المَبيد[٤] ، فى البيد ، ولا مُسكون[٥] ، الوَكون ، ولا منهم مَن احتشَى ، بمذموم الكُشَى[٦] ، ولا فى سائر الأحشاش[٧] من وليدٍ وناش ، مَن اغتذَى بالأحشاش ، فلا يُقعقَع لهم بالشِّنان[٨] ، ولا يُروّع لهم بالشنآن[٩] ، فكُفّ أيها الشّان[١٠] فلهم عظيم الشان ، واليدُ الطولى إذ تخمَّصوكم من أكفّ الخُبْثان ، صنيعٌ ، منيع ، ومِنّة ، لا يشوبها مَنّة ، فيالها مِنحة ، لكنها أعقبت مِحنة ، إذ صادفت كَفرة ، لا شكرة . إيهاً ، إذ تأبّطتم تِيهاً ، معشر البُداة ، العُداة . اعتقدتم غِلاً ، فاستترتم صِلّا[١١] . أمَا علمتم أنّ الدولة النُّوشِروانية ، والملكة الأردَشيرية بقَروا أجوافكم ، وخلعوا أكتافكم ، ثم عطّموا ، ورأفوا ، وملّكوكم الحِيرة ، بعد الحيرة ، قُلّلا ، ذُلّلا ، تتغيّرون التِّبنات ، عند البَيات ، مهجورات ، لا معمورات ، فبِرِم من ذلك غسّانكم ونُعمانُكم ، وكان بَرمُه سبباً لدرء أمانكم ، فأصبح بعد جرّ

(١) يلمح قول الراجز :

من يك ذا بت فهذا بتى مقيظ مصيف مشتى
تخذته من نعجات ست سود سمان من نتاج الدست

(٢) المسل : جمع المسيل ، وهو الجريد الرطب .
(٣) اللقاح : الحمى التى لم يدينوا للملوك . عنى أنهم يخضعون من لم يخضع .
(٤) المبيد : حب المنظل .
(٥) المسكون : جمع مكن ، وهو بيض الضب .
(٦) جمع كشية ، وهى شحمة بطن الضب .
(٧) جمع حفش ، بالكسر ، وهو الصغير من بيوت الأعراب .
(٨) الشنان : جمع شن ، وهى القربة الخلق الصغيرة .
(٩) فى الجريدة : « ولا يزعزع له باللسان » .
(١٠) أى الشأن ، وهو المبغض .
(١١) الصل : الحية القاتلة .

الذُّبول، مَدُوساً بأخفاف الفُيُول[١] . والكرامُ بنو الأصفر، الأطهر الأظهر، عطفتهم عليكم الرحم الإبراهيمية، والأُمومة الإسماعيلية، فسمَحوا لكم من الشام بأقصَى مكان بعد ما كان، مِن سيل العرِم ما كان، بؤدِّى أُمانكم، وغَسَّانكم، لقروم الأعاجم، الإناوة على الجاجم .

هذى الكارمُ لا قَعبانِ من لبنٍ شِيبَا بماء فعادا بَعْدُ أبوالا[٢] ٥

٢٨/١ مهلاً بنى الإماء، عن الغمز والإماء، فنحن عُرُق، غُرُق، فى الأنساب الصَّميمة، والأحساب العميمة، فمن يهولنا أو يروعنا، وقد رسَخَت فى المجد أصولُنا وفروعنا، ومَن يَطُولنا، وكلُّ الورى قد شمِله فضلُنا وطَولُنا .

شَرَفٌ يَنطح النُّجوم بروقَيْـ ـهِ وعزٌّ يقاقِلُ الأجبالا[٣]

خُلَفاء علم، ذوو الآراء الفلسفية الأرضية، والعلوم المنطقيَّة الرياضية. كحملة ١٠ الأسترلوميقى[٤] والموسيقى، والعَلَّامة بالأرثماطيقى والجومطريقى، والقَوَّامة بالأوطيقى والبوطيقى[٥]، [والنهضة بعلوم الشرائع، والطَّبائع، والمهرة فى علوم الأديان، والأبدان.

---

(١) كان كسرى طلب إلى النعمان بن المنذر أن يزوجه إحدى بناته، فأبى النعمان ذلك كبراً، وأخذ بناته وأمواله فى أحياء العرب، وعلم بذلك كسرى فاستزار النعمان، وعاقبه بطرحه تحت أقدام الفيلة . انظر الأغانى (٢ : ٢٨ ـ ٢٩) . وفى ذلك يقول الأعشى : ١٥

فذاك وما أنجى من الموت ربه بباباط حتى مات وهو عزرق

(٢) لأمية بن أبى الصلت . الشعراء ٤٣٣ .

(٣) البيت المتنبى فى مدح سيف الدولة . ديوانه (٢ : ١٠٤) بشرح العكبرى .

(٤) يراد بها علم النجوم . وعند الخوارزمى فى مفاتيح العلوم ٨٠ « اسطر نوميا » .

(٥) الأرثماطيقى: علم العدد والحساب. انظر ابن خلدون ٤٢. والجومطريقى عند الخوارزمى ١٠ ١١٧ وابن النديم ٣٧١ « الجو مطريا » . ابن النديم : « إقليدس صاحب جومطريا ومعناه الهندسة » . الخوارزمى : « وهى صناعة المساحة، وأما الهندسة فكلمة فارسية معربة، وفى الفارسية أندازه، أى المقادير . وفى مروج الذهب (١ : ٣٢١) : والجومطريق وهو علم المساحة والهندسة » . وأما الأوطيقى فقد تكون محرفة عن « أبوطيقا » ومعناه الشعر. إخبار العلماء قفطى ٢٨ . أو « أونولوطيقا » ومعناه تحليل القياس، والبرهان. وفى مفاتيح العلوم ٨٩ أونولوطيقا ١٥ معناه العكس. وأما « البوطيقى » فهى فى الأصل « البرطيق » محرفة . وفى مفاتيح العلوم ٩٢ بيوطيق ومعناه الشعر، يتكلم فيه على التخييل، ومعنى التخييل إتهاش نفس السامع إلى طلب الشىء، أو الهرب منه وإن لم يصدق » .

هم ملكوا شرقَ البلاد وغربَها وهم منحوكم بعد ذلك سوددا[١]

ما شئت من تدقيق، وتحقيق، حَبسوا أنفسهم على العلوم البدنية والدينية، لا على وصف الفاقة الفَدَنيَّة[٢]، فعالمهم ليسَ بالسفساف، كفعل نائلة وإساف[٣] أصغِرْ بشأنكم، إذ بزقٌ خمر باع الكعبة أبو غُبْشانكم[٤]، وإذْ أبو رِغالكم، قاد فيلَ الحبشةِ إلى حَرَم الله لاستئصالكم[٥]. [غُضُّوا الأبصار، فهذا الذِّكر إلى الفحش أصار[٦]].

أزيدك أم كفاك وذاك أنى رأيتك فى انتحالك كفتَ أحمقْ

فلا فخرَ معشر المُربان، الغربان، بالقديم، المفرَّى للأديم[٧]، لكن الفخر بان عمّنا، الذى بالبركة عَمَّنا، الإبراهيمى النسب، الإسماعيلى الحسب، الذى انتشلنا[٨] الله تعالى به وإيّاكم من التَّماية، والغَوَاية. أما نحن فمن أهل التثليث وعبادة الصُّلبان، وأنتم من أهل الدين المَليث وعبادة الأوثان[٩]، ولا غَرو أن

---

(١) التكملة من الذخيرة.

(٢) الفدنية: المشبهة فى علوها بالفدن، وهو القصر المشيد.

(٣) يزعمون أن إساف بن عمرو، ونائلة بنت سهل، فجرا فى الكعبة فمسخا حجرين ثم عبدتهما قريش. شروح سقط الزند ١٣١٥.

(٤) يذكرون أن أبا غبشان كان يلى أمر البيت، فاتفق أن اجتمع مع قصى بن كلاب فى شرب بالطائف، فخدعه قصى عن مفاتيح الكعبة بأن أسكره، ثم اشترى المفاتيح منه بزق خمر وأشهد عليه، ودفع المفاتيح فى يد ابنه عبد الدار بن قصى وطيره إلى مكة، فلما أشرف عليها قال رافعا عقيرته: معاشر قريش هذه مفاتيح أبيكم إسماعيل قد ردها الله عليكم! وأفاق أبو غبشان من سكره أشد ندامة من الكسعى. شروح سقط الزند ١٩٨٢.

(٥) كان أبرهة عامل النجاشى على اليمن قد عزم أن يهدم البيت، ومر فى طريقه على ثقيف بالطائف، فبعثوا معه أبا رغال يدله على الطريق إلى مكة. السيرة ٣١ — ٣٢.

(٦) التكملة من الذخيرة.

(٧) الذخيرة: «فعلى فرى الأديم».

(٨) فى الأصل: انتشانا»، تحريف.

(٩) المليث من الملث، وهو أن يعد الرجل الرجل عدة لا يريد أن يفى بها.

كان منكم حِبْرُه وسِبْرُه ، ففى الرَّغام يُلقَى تِبْرُه ، والمِسك بعضُ دمِ الغزال ، والنِّطاف العِذاب مستودَعات بمَسْك العَزَّال[1]

لله مما قد برا صفوة وصفوة الخلق بنو هاشم[2]

وصفوة الصفوة من بينهم محمد النور أبو القاسم[3]

بهذا النبيِّ الأمِّيّ، أفاخر من تفخّر، وأكاثِرُ من تقدّم وتأخّر، الشريف السلَفيين، والكريم الطَّرَفين، الملتقَى بالرسالة، والمنتقَى للأداء والدِّلالة، أصلّى عليه عدَدَ الرَّمل، ومَدَدَ النَّمل، وكذلك أصلّى على واصِل جناحه، سيوفه ورماحه أصحابه الكرام، عليهم من الله أفضل السلام. ٢٨ ب

يابنَ الأعارِبِ ما علينا بأسُ لم أحكِ إلا ما حكاه الناسُ

هذا .

ولم أشتمْ لكم عرضاً ولكنْ حَدَوتُ بحيثُ يُستَمَع الحداء

ثم أحجِ بشاعر غسّان ، لا ساسان، فى هذا العيد، بالوعيد، وأحرِ فى هذا الفصل، بعدم الوصل . لقد غَمَّ آخرَك ، لكن بالرَّغم أخَّرك ، إذ أضربتَ عن مديح ، علِقنا الرَّبيح ، مُعِزّ الدولة شهِينا الرئيس ، ومَهِينا النَّفيس ، قَيْل الأُمَم[4] ، وسيل الأُمَم[5] ، معنى المعانى ، ومغنى المغانى ، ذى الرياسة السَّاسانية ، والنَّفاسة النَّسانية . فاذهبْ ، يا غثُّ المذهب ، وابتغِ فى الأرض نَفَقاً ، أو فى السَّماء مرتقى ، فهذه أُبَيَّة ، جلبت عليك بلِيَّة . أو حُكْ من البسيط والمديد ، ما تستجير به مِن بطشِنا الشَّديد ، إذ نحن معشَرَ الموالى ، لا نوالى ، إلاّ من هو

(١) المسك ، بالفتح : الجلد . والعزال : جمع عزلاء ، وهو فم المزادة الأسفل .
(٢) فى مروج الذهب (٢ : ٢٧٤) : « ممن قد برا » .
(٣) فى مروج الذهب : « وصفوة الصفوة من هاشم » .
(٤) القيل : الملك ، وأصله الملك من ملوك حمير .
(٥) الأمم ، بالتحريك : القصد الذى هو الوسط ، وهو القرب أيضاً .

لعظيمتنا مُوالى ، وحذارِ حذار أن تقرع سنَّ الندم ، ولات حينَ مندم ، قبل أن تُجمَع ذُنوبُك ، على ذَنوبِك[١] ، وكَرَبُك فى كَرَبك ، فمن أبصر ، أقصر ، وما حَرُف ، مَنْ صديقَه خَوُف .

فلا تتبشَّعْ محضَّ العتـــا ب يلقاك يوماً بلقياه لاقِ[٢]
فإنَّ الدواء حميدُ الفعالِ وإن كان مرَّا كريهَ المذاق

يا معتقِلَ عَلَمِ الشِّعر ، والمستقلَّ بقلم النظم والنثر .

قد استحييتُ منك فلا تَكلْنى إلى شىء سوى عُذرٍ جميل[٣]
وقد أنذتُ ما حقَّى عليـــه قبيحُ الهجو أوشتمُ الرسولِ[٤]
وذاك على انفرادك قوتُ يوم إذا أنفقتَ إنفاقَ البخيل
وكيف وأنت عُلوىُّ السَّجايا وليس إلى اقتصادك مِن سبيل ٢٩/١
وقد يُقوى الفصيحُ فلا تُقابِلْ ضعيفَ البِرِّ إلا بالقَبول
وإنَّ الوزن وهو أصحُّ وزن يُقام صَغاهُ بالحرف الضليل[٥]
فإنْ يَكُ ما بعثتُ به قليلا فلى سالٌ أقلُّ من القليل

تجوّزته من كلام المرى .

والسَّلام عليك ما سَبَحَ المَلَك ، وسبَّح المَلَك[٦] . ورحمة الله وبركاته .

---

(١) الذخيرة : « فى ذنوبك » . والذنوب ، بالفتح : الدلو .
(٢) الذخيرة « فلا تتبع . . . فبلقاك . . لحناه .
(٣) للمعرى فى شروح سقط الزند ١١٤٤ — ١١٤٩ .
(٤) يعنى الرسول الذى أنفذه بالرسالة .
(٥) الذخيرة : « وإن الشعر ، وهو أتم وزن » وما فى الأصل يطابق ما فى الك وح .
(٦) الملك : الملائكة .

المصادر والمراجع

* ابن الأبار / المعجم / مجريط / ١٩٨٥ م .
* د. إبراهيم عوض / المستشرقون والقرآن / دار الحقوق / القاهرة / ١٩٨٤ م .
* د. إبراهيم عوض / من ذخائر المكتبة العربية / الطائف / ١٤١٣ هـ - ١٩٩٢ م .
* د. إحسان عباس / تاريخ الأدب الأندلسى - عصر الطوائف والمرابطين / ط ٦ / دار الثقافة / بيروت / ١٩٨١ م .
* د. أحمد أمين / ظهر الإسلام / ٣ / ط ٥ / دار الكتاب العربى / بيروت / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٩ م .
* د. أحمد هيكل / الأدب الأندلسى من الفتح إلى سقوط الخلافة / ط ٧ / دار المعارف / ١٩٧٩ م .
* ألبير حبيب مطلق / الحركة اللغوية في الأندلس منذ الفتح العربى حتى نهاية عصر ملوك الطوائف / المكتبة العصرية / صيدا وبيروت / ١٩٦٧ م .
* الألوسى / روح المعانى / دار إحياء التراث العربى /

بيروت .

* بالنثيا / تاريخ الفكر الأندلسي / ترجمة د. حسين مؤنس / مكتبة النهضة المصرية / ١٩٥٥ م .

* ابن بسام / الذخيرة / تحقيق د. إحسان عباس / ط٢ / دار الثقافة / بيروت / ١٣٩٩ هـ - ١٩٧٩ م .

* البلوى / ألف باء / عالم الكتب / بيروت .

* ابن حجر / لسان الميزان / ط حيدر أباد الدكن / ١٣٣٠ هـ .

* ابن حزم / رسائل ابن حزم / تحقيق د. إحسان عباس / ط ١ / المؤسسة العربية للدراسات والنشر / بيروت / ١٩٨١ م .

* أبو حيان / البحر المحيط / مكتبة ومطابع النصر الحديثة / الرياض .

* الذهبي / سير أعلام النبلاء / تحقيق الأرناؤوط والعرقسوسي / ط ٢ / مؤسسة الرسالة / بيروت / ١٤٠٢ هـ - ١٩٨٢ م

* ابن سعيد / المغرب فى حلى المغرب / تحقيق د. شوقى ضيف / القاهرة / ١٩٥٣ - ١٩٥٥ .
* ابن سلام / طبقات (فحول) الشعراء / تحقيق محمود شاكر / مطبعة المدنى / القاهرة .
* ابن سيدة / المحكم / تحقيق مصطفى السقا ود. حسين نصار / ط ١ / مصطفى البابى الحلبى / ١٣٧٧ هـ - ١٩٥٨ م .
* ابن عبد ربه / العقد الفريد / المطبعة العامرة الشرفية / القاهرة / ١٣٠٥ هـ .
* عبدالسلام هارون / نوادر المخطوطات / مجلد ٣ / ط ٢ / مصطفى البابى الحلبى / القاهرة .
* د. عمر فروخ / تاريخ الأدب العربى / ٤ / دار العلم للملايين / بيروت / ١٩٨١ م .
* ابن قتيبة / الشعر والشعراء / تحقيق أحمد شاكر / دار المعارف .
* ابن قيس الرقيات / ديوان عبدالله بن قيس الرقيات /

تحقيق د. محمد يوسف نجم / دار صادر ودار بيروت / ١٣٧٨ هـ - ١٩٥٨ م .

* كليليا سارنلى تشركوا / مجاهد العامرى / ط ١ / لجنة البيان العربى / ١٩٦١ م .

* لسان الدين بن الخطيب / الإحاطة فى أخبار غرناطة / تحقيق / محمد عبدالله عنان / ط ١ / الخانجى / القاهرة / ١٣٩٥ هـ - ١٩٧٥ م .

* محمد عبدالله عنان / دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى / ط ٢ / الخانجى / ١٣٨٩ هـ - ١٩٦٩ م .

* محمد بن عبدالملك الأنصارى / الذيل والتكملة لكتابى الموصول والصلة / تحقيق محمد بن شريفة / دار الثقافة / بيروت .

* محمد كرد على / أمراء البيان / لجنة التأليف والترجمة والنشر / ١٣٥٥ هـ .

* محمد كرد على / رسائل البلغاء / ط ٣ / لجنة التأليف

والترجمة والنشر / ١٣٦٥ هـ - ١٩٦٤ م .

* المقرى / نفح الطيب / تحقيق د. إحسان عباس / دار صادر / بيروت / ١٣٨٨ هـ - ١٩٦٨ م .

* النابغة الجعدى / شعر النابغة الجعدى / تحقيق عبدالعزيز رباح / ط ١ / المكتب الإسلامى / دمشق / ١٣٨٤ هـ - ١٩٦٤ م .

* أبو نواس / ديوان أبى نواس / مطبعة مصر والحميدية .

الفهرست

* مقدمة ٣
* نفثة حسرة ٦
* ابن غرسية ٩
* مسائل تحتاج إلى تجلية ١١
* تلخيص وتحليل لرسالة ابن غرسية ٣٢
* ملاحظات على الردود التى كتبت ضد ابن غرسية ٦١
* أسلوب الرسالة ٧٨
* ردود أخرى على رسالة ابن غرسية ٩٨
* نص رسالة ابن غرسية ٩٩
* المصادر والمراجع ١٠٨
* الفهرست ١١٣